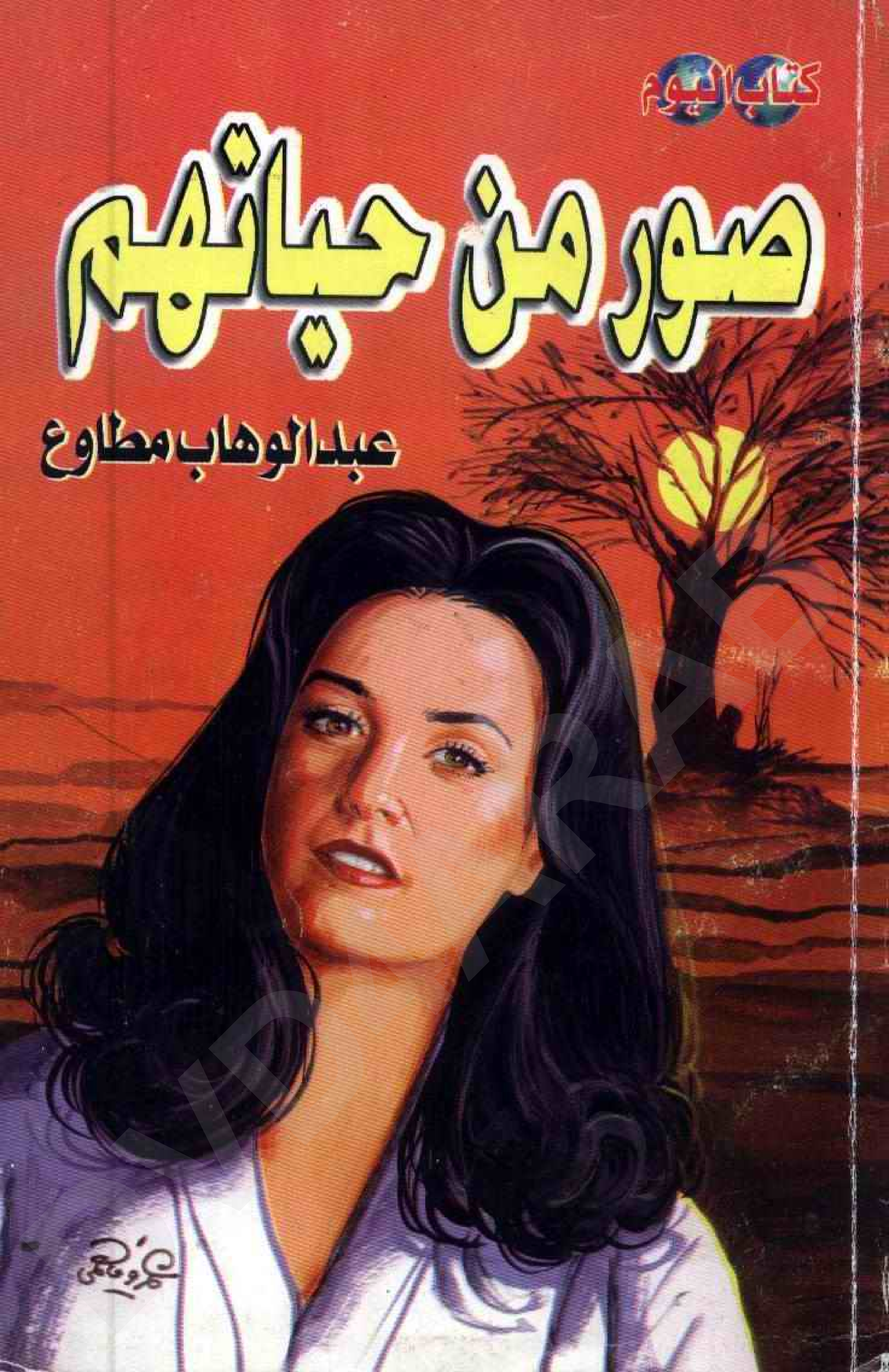
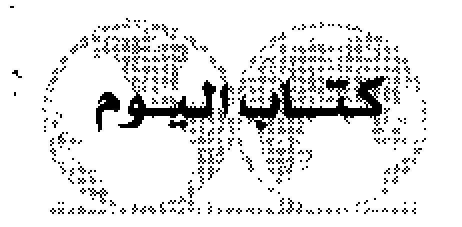
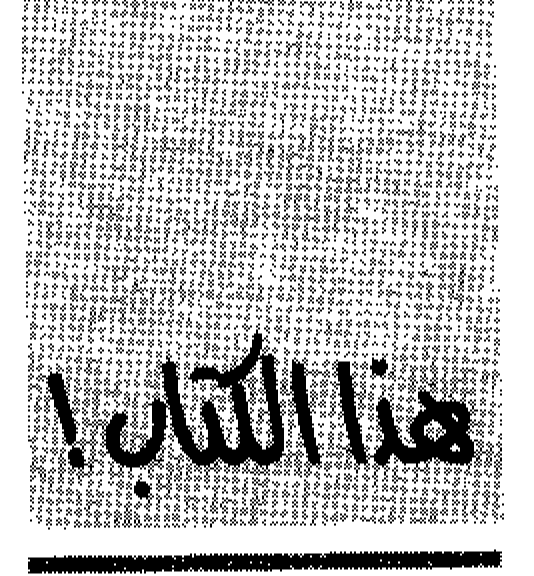

كتاب اليوم
صور من حياتهم
عبد الوهاب مطاوع



عبد الوهاب مطاوع

صور من حياتهم



هذا الكتاب!

فى هذه المجموعة القصصية الجديدة التى أقدمها لك أصداء من حياة بعض البشر الذين راقبت أحوالهم عن بعد أو سمعت منهم شجونهم .

ولقد تذكرت وأنا أكتب مقدمة هذه القصص أو الصور الأدبية تلك العبارة الشهيرة التى تمهِّد أحيانا لأحداث بعض الأفلام بقولها : قصة درامية تعتمد على وقائع حقيقية !

وبالرغم من ذلك فلا بد لى أن أعترف لك أننى حين كتبت هذه القصص لم أتعمد أن أروى فيها حكايات أشخاص بعينهم أو أن أصوغ حكاياتهم مع الزمن فى قالب درامى ، لكن الكاتب حين يجلس إلى قلمه وأوراقه ليكتب عملاً أدبيا فإنه يستدعى بغير وعى منه كل ما ترسب فى أعماقه على مر السنين من مشاهداته فى الحياة وذكرياته الشخصية وذكريات من عرفهم

على مرِّ السنين وما عايشه أو اقترب منه من تجارب الآخرين فيسيل قلمه على الورق مختلطاً بكل ذلك .. ومضافاً إليه خواطره وأفكاره ورؤيته الشخصية للحياة .

فإذا سألنى أحد القراء بعد نشر قصة من هذه القصص كما يحدث لى فى أحيان كثيرة : هل هى قصة واقعية قرأتها فى رسائل المهمومين إليك ، أم هى قصة مؤلفة من خيالك الأدبى ؟

عجزتُ صادقاً عن الرد ، ليس ضَنّاً بالإجابة وإنما لأننى لا أملك جواباً صادقاً على السؤال ، ولأننى إذا أجبت من سألنى بأنها قصة خيالية من بنات أفكارى ، فإنى أكون قد أنكرت أثر كل ما تسلل إلى وجدانى من مؤثرات وملاحظات وتأملات لحياة من اقتربت منهم أو من سمعتُ منهم شجونهم .

وإن أجبتُ سائلى بأنها قصص واقعية أكون قد خالفت الحقيقة أيضاً وأنكرت أثر صنعتى الأدبية على ما أكتب ومؤثرات أفكارى وخواطرى ورؤيتى للحياة فيما أفرزه من كتابات .

فالقصة القصيرة فى تقديرى هى فن ملاحظة الحياة وإعادة صياغة بعض مواقفها أو لحظاتها الشعورية فى قالب أدبى يعكس صنعة الكاتب وقدرته على توظيف أدواته الفنية وهى بهذا المفهوم عمل لا يستطيع الكاتب أن يبتدعه من الخيال المطلق اللهم إلا فى قصص الخيال العلمى وما شاكلها من

الكتابات ، ولا يستطيع أن يقتصر فيه على تسجيل « الواقع » الذى شهده أو اقترب منه ، وإلا لأفرز عملاً آخر لا ينتمى إلى فن الكتابة الأدبية بصلة .

وبهذا المفهوم فلعلى أستطيع أن أزعم أن ما أقدمه لك فى هذا الكتاب هو كسابقه مما قدمته فى مجموعاتى القصصية الثلاث : « أماكن فى القلب » ، ولا « تنسنى » و « الحب فوق البلاط » ، من قبيل الأدب القصصى أو الصورة الأدبية التى لا تحلق بشكل مطلق فى سماء الخيال ولا تكتفى كآلة التصوير الفوتوغرافية برصد الواقع .

فإذا استشعر أحد نفسه فى إحدى صور هذه المجموعة الأدبية فلا غرابة فى ذلك ، لأنها صور لها جذور وأشباه وملامح فى حياة بعض البشر ، وإن لم ير فيها نفسه أو أحداً ممن يعرفهم فلا عجب فى ذلك أيضاً لأنها ليست « تقارير » واقعية عن مجريات أحوال بعض البشر ، وإنما هى مزيج من الواقع والخيال الأدبى ومزيج من الفن القصصى وفن تأمل أحوال البشر والتفكر فيها .

فشكراً لك إن تقبلتها على هذا الأساس ، وشكراً لك فى كل الأحوال .

عبد الوهاب مطاوع

صور من حياتهم

١



واجبات الصباح !

نهضت من نومها فى الفجر كعادتها كل يوم منذ زمن طويل، تثاءبت فى الفراش بكسل ثم مسحت بيديها ما تحت عينيها كأنما تزيل عنهما آثار النوم وغادرت الفراش على مهل إلى الحمام.

رجعت إلى غرفتها بعد قليل فاستقرت نظرتها للحظات على الفراش الخالى قبل أن تسوى الغطاء المشعَّث، وخطرت «الذكرى» ببالها فى موعدها كل صباح فتعجبت للنفس التى لا تريد أن تنسى أو تتناسى !

واجبات الصباح تنتظر الأداء كعهدها معها، ولكن شتان ما بين إحساسها بهذه الواجبات فى الماضى الدافىء واحساسها بها الآن فى الحاضر البارد ببرودة الوحدة والفراغ.

فى الأيام السعيدة كانت ترجع من الحمام على أطراف قدميها فتبدل ملابس النوم فى حذر وترتدى جلبابا منزليا مطرزا وتسوى شعرها أمام المرآة فى غبشة الصباح المتسرب للغرفة المظلمة، ثم تنسحب بهدؤ إلى الصالة فتؤدى صلاة الفجر، وتتجه للمطبخ فتصنع لنفسها كوبا من الشاى وتخرج

كيس اللحم المجمد من «الفريزر» ليذوب ببطء فى الحوض، وتقوم بغسل الملابس فى الغسالة التى لا يصدر عنها صوت عال ينبه النائمين من نومهم، وتمسح بلاط المطبخ ثم بلاط الحمام والصالة وتمسح على الأثاث وتنفض عنه الغبار وتكوى الملابس التى أعدتها للكى منذ المساء السابق، وتخرج إلى الشرفة فتمسحها أو تكتفى بكنسها حسب الأحوال وتسقى الزرع وتضع للعصافير الملونة طعامها فى القفص وتغيّر ماءها، ثم ترجع للمطبخ فتجد اللحم جاهزا للطهو فتطهو طعام اليوم، وتدعه لينضج على مهل فوق البوتاجاز وتطمئن إلى أن كل شىء يمضى فى طريقه المعهود فتتجه إلى الحمام وتغتسل وتمشط شعرها وترجع إلى غرفة النوم فترتدى ملابس الخروج فى غير حذر هذه المرة من أن يصحو النائم فى فراشه على حركتها، فالساعة قد قاربت على الساعة السابعة صباحا ولابد له من أن يصحو فى موعده ليذهب إلى عمله، ومن بعده بدقائق سوف يصحو الأحباء من نومهم اللذيذ وتجتمع الأسرة حول مائدة الإفطار قبل أن يتفرقوا بين المدارس.

وفى موعده المعتاد سوف يفتح عينيه فيجدها أمامه فى كامل زينتها واستعدادها للخروج فيلقى عليها تحية الصباح ويسألها نفس السؤال الذى لم يكن يتغير أبدا :

– متى صحوت ؟

وتجيبه بنفس الإجابة التى لم تكن تتغير غالبا :

– أوه.. منذ زمن طويل، وقد نظفت الشقة وغسلت الغسيل وكويت الملابس النظيفة ووضعت الطعام على النار وأخذت حماما، وكل ذلك وأنت نائم فى العسل! فيبتسم منوّها بحيويتها ونشاطها ومهارتها فى أعمال البيت وقد يخلط إعجابه بشىء من المشاكسة من حين لآخر فيقول لها :

– وما وجه الغرابة فى ذلك وأنت تنامين كالدجاج من العاشرة مساء ! ويتجه إلى الحمام فتخرج هى لغرفة الأبناء وخلال دقائق قليلة تضج الشقة التى كانت صامتة قبل قليل بالحركة والنشاط، وتبدأ المناكفة اليومية مع باسم لكى يتعجل ارتداء ملابسه قبل أن يفوته موعد المدرسة ومع «بسمة» لكى تكف عن الملاحاة مع شقيقها وتتعجل الانتهاء من ارتداء ملابس المدرسة لمساعدتها فى إعداد المائدة.

وتلتقى الأسرة حول مائدة الإفطار فى السابعة صباحا فتستمتع بإفطار ساخن شهى، ثم تهرول الابنة للحاق باتوبيس المدرسة الذى يمر أمام العمارة بعد لحظات، ويمسك باسم بحقيبته انتظارا لانتهاء أبيه من فنجان القهوة ليركب معه سيارته الصغيرة إلى المدرسة.

ويخرج الأحباء جميعا من المسكن فترفع هى أطباق الطعام وأكواب الشاى الفارغة وتعيدها إلى المطبخ وتختبر أوانى الطعام الموضوعة فوق البوتاجاز فتجدها قد نضجت أو أوشكت على النضج فتطفىء النار، ثم تنشغل بعض الوقت فى إخراج

الملابس من الغسالة ونشرها، وبعدها تسوى ملابسها وشعرها أمام مرآة المدخل وتنفث بعض العطر فى وجهها ثم تحمل حقيبتها الصغيرة وتغادر الشقة، سائرة على الأقدام إلى عملها بالمدرسة القريبة.

ومرارا سألها زوجها الحبيب لماذا تنهض من نومها قبيل الفجر وعملها لا يبدأ إلا بعد الثامنة صباحا، ولماذا لا تؤجل الطهو وتنظيف البيت وغسل الملابس إلى ما بعد العودة فى المدرسة، فتجيبه كل مرة بأنها لو فعلت ذلك فسوف ينقضى اليوم دون أن تنتهى من كل ما تريد عمله فى البيت، فبعد الظهر تنشغل بمتابعة مذاكرة الأبناء وحل نزاعاتهم التافهة وتلبية مطالبهم ورعاية الزوج الحبيب نفسه فضلا عما تخصصه من وقت لتصحيح الكراريس والترويح عن النفس بمشاهدة التليفزيون أو استقبال صديقة لها أو زيارة أخرى فى مسكنها بنفس العمارة، ثم ماذا تفعل بين الرابعة صباحا والثامنة كل يوم وهى لا تستطيع مهما حاولت إلا أن تصحو فى موعدها الذى اعتادته طوال العمر ؟

فأما احتياجات البيت فتشتريها خلال رحلة العودة ماشية من المدرسة القريبة إلى مسكنها، وقد أصبحت الرحلة تسلية حبيبة إلى نفسها فى حد ذاتها، فتتفرج على معروضات المحلات التجارية، وتشترى ما تحتاج إليه، وقد ألفها أصحاب المحلات فى الطريق من المدرسة إلى البيت وألفتهم وقد تكتشف سلعة

جديدة ورخيصة فتشتريها لنفسها أو لاحدى جاراتها المقربات، وقد تجد ما يستحق أن تشتريه مما يصلح للادخار لبسمة فى المستقبل وقد قاربت على بداية سن الشباب، وتجهيز البنات للزواج يبدأ عندها من بلوغهن سن العاشرة على أكثر تقدير ! وقد تجد فى سوق الخضر ما تحتاج إليه لممارسة مهارتها المنزلية فى صنع المربات والمخللات التى يعشقها زوجها وتسعد بكلماته المحببة حين يقول وهو يتناولها : ليس للمربى أو المخلل الذى تصنعينه مثيل فى أى مكان آخر، أنت « أستاذة » حقا فى فن الطعام ! فتسعد كطفلة بهذا الثناء، وتسأله باستنكار من يطلب المزيد منه :

– فى الطعام فقط، وماذا عن بقية شئون البيت، وماذا عن تربية الأبناء ونظافتهم وأخلاقياتهم، وماذا عن اهتمامى بك ؟ فيرفع يديه معترضا ويقول :

– هل ستتشاجرين معى لأنى أبدى اعجابى بمهارتك فى الطعام ؟

وفى مثل هذه المناوشات اللذيذة كانت تمضى الحياة معه ، وفى أوقات الخلاف العابرة لم يكن يسمح لنفسه أبدا بإيلامها أو جرح مشاعرها، وكان أقصى ما يذهب إليه هو أن يحتدَّ عليها بعض الشىء ويتهمها بأنها « ظالمة » و « مفترية » « ولا تعرف ربنا » ! ثم يقطب كالطفل الغاضب فتكاد فى أكثر

الأحيان أن تضحك لمظهره الطفولى الغاضب أكثر مما تستجيب للغضب !

وكان أقسى ما يفعله إذا اشتد غضبه منها هو أن يتجنبها بعض الوقت ويلتزم الصمت معها فلا يرد عليها إن هى خاطبته، فلا تستريح حتى تفتعل سببا للحديث معه، فيجيبها فى البداية بتحفظ مقصود، وتواصل هى الاقتراب منه إلى أن يلين تماما ويرجع لسابق عهده ويتعاتبان بلا مرارة، وتعتذر له أو يعتذر لها ثم ترجع المياه إلى مجاريها بينهما وتشهد حياتهما ليلة حب دافئة بعطر المشاعر والأحاسيس، حتى سألها ذات مرة مشاكسا :

– لماذا لا تكونين ملبية ومستجيبة بهذه الحرارة إلا فى أعقاب الخصام !

فكادا لحظتها يرجعان إلى الشقاق من جديد واتهمته بالجحود كطبع كل الرجال ! لولا أن سارع باسترضائها ومضت الليلة فى سلام !

آه كانت الدنيا دنيا، والحياة حياة.

وكانت الأيام مشحونة بالمشاغل اللذيذة والآمال.

وفى يوم الجمعة من كل أسبوع يشهد المسكن الدافىء الأسرة وهى فى أبهج أيامها وأكثرها دفئا وحميمية، وفى مرات عديدة خرجت الأسرة كلها يوم الإجازة إلى النادى وإلى

الزيارات العائلية، وفى الصيف كانت لها رحلتها السنوية إلى شاطىء البحر، وفى الشتاء كانت لها رحلتها فى إجازة نصف العام الدراسى إلى الفيوم أو الاسماعيلية فكيف جرفت الأيام كل ذلك إلى هاوية الذكرى، خلال فترة قصيرة كأنها غمضة عين ؟ فتخرجت بسمة وتزوجت وتخرج باسم وقبل أن يلتحق بعمل كانت الأسرة قد مادت الأرض تحت أقدامها بفقد الزوج الحبيب ورحيله عن الدنيا وهو لم يكد يتخطى الثالثة والخمسين من عمره، ثم وجدت نفسها فجأة قبل أن يكتمل عام على رحيله عنها أكثر وحدة ووحشة، فلقد أتيحت لابنها الوحيد فرصة للعمل بإحدى الدول العربية عن طريق زوج اخته، وتردد الابن الحبيب فى قبوله اشفاقا على أمه من وحدتها الكاملة إذا رحل، فوجدت نفسها تشجعه على قبولها وتحثه على ألا يضيعها من يده مؤكدة له أن نجاحه فى الحياة أمر يسعدها أكثر مما يسعدها قربه منها، ولسوف تواجه وحدتها بشجاعة مستعينة عليها بذكرى الأب التى تؤنس روحها وباحساسها بالرضا عن نفسها لأنها لم تقف فى طريق مستقبله، فاستجاب الابن العطوف كارها وبكى بحرارة وهو يودعها، وبكت بسمة لبكائه ولحزن أمها الصامت أما هى فقد تماسكت أمامه بقدر المستطاع، وأصرت على توديعه فى المطار، فلم يفلت منها الزمام إلا وهو يقبلها مودعا قبل أن يغيب وراء الأسوار.

ثم بكت بعد ذلك حتى جف دمعها فى وحدتها، وبكت الزوج

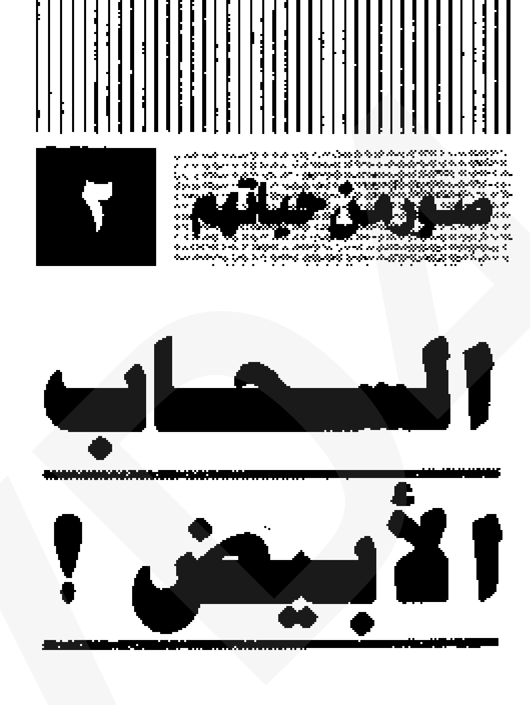
الحبيب فى مناسبة سفر ابنها كأنما قد رحل عن الحياة اليوم وليس قبل عامين، ثم سارت الحياة فى طريقها، وقد اختلف كل شىء فيها عن ذى قبل، فلم يبق لها من مشاهدها السابقة سوى عادتها القديمة التى لم تنجح أقوى المهدئات فى تغييرها، وهى الصحو قبيل الرابعة صباحا والانشغال بأعمال البيت وطهو الطعام وغسل الملابس قبل أن تذهب إلى عملها لكن شتان ما بين إحساسها بهذه الواجبات فى الأيام السعيدة الماضية وبين إحساسها البارد بها وهى تؤديها الآن بحكم العادة وشغلا للنفس عن خواطرها الحسيرة، فإن كان ثمة سلوى فى الحياة الخالية، ففى زيارة الابنة الحبيبة لها واتصالها الهاتفى بها فى اليوم الواحد عدة مرات وفى اتصالات الابن الحبيب كل حين ورسائله، وفيما عدا ذلك فما أطول الأيام وما أشقّ الأمسيات الخالية على من تتجاوز بعد السابعة والأربعين من عمرها، وما أكثر أوقات الفراغ فى حياتها بعد العودة من المدرسة..

● ● ●

انتهت من واجبات الصباح قبل موعدها فى الأيام السعيدة بكثير بعد أن قلَّت الملابس التى تحتاج للغسل والكى، وأصبح تنظيف الشقة الخالية لا يستغرق ربع الوقت الذى كان يحتاج إليه من قبل، وأصبحت وجبه الطعام التى تعدّها تكفيها ليومين.

فخرجت إلى الشرفة تتسلى بمشاهدة الذاهبين إلى أعمالهم ومدارسهم فى الصباح الباكر، وتحتسى فنجانها الثانى من

القهوة التى أصبحت تسرف فى احتسائها كل يوم بعد أن كانت لا تشربها سوى مرة واحدة فى الصباح مع الحبيب الراحل، ثم نظرت إلى ساعتها فرأت عقربها يتجه إلى الثامنة فعادت بفنجان القهوة إلى المطبخ ووقفت أمام مرآة المدخل فسوت ملابسها وشعرها ونفثت العطر فى وجهها ثم حملت حقيبتها الصغيرة وغادرت الشقة ونزلت السلم إلى مشوارها اليومى المعتاد، وهى تسأل نفسها هذا السؤال الذى تردد فى أعماقها كثيرا خلال الأيام الماضية : لماذا يرحل الأحباء عن أحبابهم حين يصبحون أشد احتياجا إليهم من أى وقت مضى ؟!


صور من حياتهم
٢
السحاب
الأبيض !

كيف التقيا.. وماذا جمع بينهما.. وكيف افترق بهما الطريق ؟

لقد كانت حياته تمضى فى طريقها المعهود.. يذهب إلى عمله بالمحكمة فى الصباح.. ويلّم بمكتبة فى الظهيرة لبعض الوقت.. ثم يرجع إلى البيت قرب الأصيل فيتناول طعام غدائه إن لم يكن قد تناوله مع بعض العملاء فى النادى، ثم يستلقى فى فراشه لمدة ساعة قبل أن يرجع إلى مكتبه بوسط المدينة فى الثامنة مساء ويطول به السهر فيه كل ليلة، يستقبل العملاء أو يراجع القضايا، أو يلتقى ببعض الأصدقاء .

والأيام تمضى فى طريقها المرسوم وقد استقر الفتور والصمت والجفاف فى حياته الخاصة حتى يئس من الاصلاح، ولم يعد يحلم سوى بمواصلة القدرة على الاحتمال، لكيلا ينهدم البيت الخاوى من الحب والفهم، ويتمزق الصغار بين أبوين لم ينجحا معا فى تهوين الحياة أحدهما على الآخر.

ومنذ سنوات طويلة انتحر الحب فى حياته الشخصية تحت

وطأة الشقاق واختلاف الطباع، والاهتمامات، والعجز عن الفهم والعطاء، فتراضى مع نفسه على الاستمرار رغم جفاف الأيام طلبا لاستقرار الحياة بأطفاله، وأملا فى التوصل ذات يوم لصيغة محتملة لشكل الحياة فى بيته، وبطبيعته الزاهدة فى العبث والمغامرة كفَّ نفسه عن التطلع للتعويض العاطفى خارج إطار حياته الشخصية ، وراقب السنين قانطا وهى تمضى به فى طريق العمر حتى بلغ الخامسة والأربعين قبل أيام فتساءل : متى تجيء السعادة وشمس العمر قد بدأت رحلتها الحتمية فى اتجاه المغيب؟

إلى أن كان فى مكتبه بالمساء ذات يوم ودخل إليه وكيله ينبئه بقدوم سيدة ترغب فى إقامة دعوى لاسترداد قطعة أرض للبناء ورثتها عن أبيها وفوجئت بمن وضع يده عليها ويرفض اخلاءها بكل السبل الممكنة؟ وهم المحامى الكبير بأن يشير إلى وكيله باحالتها إلى أحد مساعديه، لكن شيئا ما منعه فى اللحظة الأخيرة، فطلب إليه إدخالها إليه واستعد لاستقبالها فى فتور، ودخلت السيدة مكتبه فنهض مرحبا، وقد أُخذ بجمالها الوديع، ومظهرها الأنيق المحتشم ودعاها للجلوس، وبدأت السيدة تروى قصة نزاعها مع مغتصب الأرض فداهمه إحساس غامض غريب بأن هذه السيدة الجميلة لن تكون مجرد عميلة لمكتبه فى نزاع قانونى، ولن تمر بحياته مرور العابرين.

وخجل من هذا الإحساس المفاجيء، وخُيِّل إليه أن السيدة

الوديعة قد قرأت أفكاره، وساورتها بشأنه الظنون، فافتعل التحفظ معها رغم اضطرابه الداخلى، وقاوم رغبته فى النظر إليها طوال الحديث وتشاغل بعينيه عنها رغم اهتمامه الطاغى بأمرها.

وانتهى اللقاء الأول بينهما واعداً إياها ببذل كل جهده فى الدفاع عن حقها، وقبل أن تغادره تساءلت فى حياء عن «الاتعاب» لكى تؤدى مقدمها إلى وكيله فاعتذر لها عن عدم الحديث فى المسائل المادية، وطلب منها بأريحية طبيعية فيه إلا تشغيل راسها الجميل بها، وغادرته السيدة وقد تركت فى نفسه ابلغ الأثر.

وتساءل وهى تغادر غرفته فى صمت : ترى ماذا سيكون من أمرك معى، وأمرى معك.. أيتها السيدة الجميلة الوديعة ؟

وتعجب لهذا الإحساس الغامض الذى راوده بأنه، سوف يكون لهذه السيدة معه شأن خاص لا يتعلق بالعمل أو المحاكم وتساءل عن مصدره أو مبرره فلم يحر جوابا.

وقرر فى النهاية أن يدع الأمور تجرى فى طريقها بغير تعجل للخطوات أو محاولة دفعها فى أى اتجاه، وتكرر اللقاء بينهما بعد ذلك أكثر من مرة.

وفى كل مرة يتعمق لديه هذا الإحساس الغامض ويستشعر لديها الألفة والود والاهتمام وفى اللقاء الخامس وجد كل منهما فى نفسه رغبة شديدة فى أن يتحدث إلى الآخر عن حياته

الخاصة فروى للآخر ما لا يرويه إلا لمن يهبه ثقته ويطمئن إليه.

وفى اللقاء السادس اعترفت له فى حياء بأنها قد جاءت إلى مكتبه فى اللقاء الأول وهى لا تفكر فى شىء سوى فى قضيتها، وكم سوف يستأديها هذا المحامى المعروف من اتعاب قبل أن يفوز لها بحقها المسلوب ؟ ثم غادرت مكتبه وقد تراجعت قضيتها إلى حد كبير فى دائرة شواغلها وشغلت بشىء طارىء جديد، هو لماذا يبدو هذا الرجل الناجح حزينا ومهموما طوال الوقت ؟ وماذا يشغل خواطره حتى يشرد بعيدا عنها وهى تحدثه عن قضيتها حتى تظنه لم يسمع منها شيئا، فإذا انتهت من حديثها إليه ناقشها فيما روت، مناقشة من سمع كل شىء ووعى كل شىء، ولماذا تشعر ولأول مرة فى حياتها منذ ارتبطت بمن تشاركه حياتها وحصرت اهتمامها فى أسرتها وأطفالها «برغبتها» فى أن تشارك هذا الرجل الذى تلتقى به لأول مرة بعض ما يشغل خواطره، وتخفف من وطأتها عليه ؟ واعترفت له أيضا أنها قررت بعد يومين من لقائهما، ألا ترجع إلى المكتب مرة أخرى لتقديم الأوراق ودفع مقدم الأتعاب وأن تبحث عن محام آخر لا تنشغل بأمره، تفاديا لمتاعب تشعر بأنها تتجمع فى الأفق وتوشك أن تهب عليها، وهى السيدة التى لم تخن عهد الوفاء مع شريك حياتها رغم تعاستها به واعترفت له أيضا بأنها قد سألت بعض صديقاتها بالفعل أن يرشحن لها محاميا آخر لأن من ذهبت إليه بقضيتها مشغول ولن يوجه وقتا

كافيا للاهتمام بقضيتها، وحصلت بالفعل على توصية لمحام كآخر وحملت أوراق القضية ومقدم الأتعاب معها وغادرت بيتها فى الطريق إليه، فوجدت نفسها تتجه لا إراديا إلى مكتبه هو على غير موعد وتطلب مقابلته !

واستمع الرجل إلى اعترافاتها الجميلة وهو فى نشوة طاغية واعترف لها هو أيضا بذلك «الإحساس الغامض» الذى داهمه حين رآها لأول مرة وكيف خجل منه وتصور أنها قد اطلعت عليه، فتعمد التحفظ معها فى لقائهما الأول، وكيف غادرته وهو يأمل بل ويرجو ويستجدى أن ترجع إليه مرة أخرى، وظل طوال الأيام التالية يترقب عودتها فى لهفة، ويستعيد صورة وجهها الجميل الحزين ويتساءل فى باطنه : لماذا لا تجود الحياة غالبا بالسعادة على من يستحقونها !

والتقى الغريبان فى منتصف الطريق، واعترف كل منهما لنفسه وللآخر بأنه يحتاج إليه بشدة، ويأمل فى أن يتخفف معه من تعاسته، لكن أحلام السعادة لدى الاثنين متواضعة ولن تتجاوز الأمل فى استراحة قصيرة من كل الهموم حين يلتقيان على فترات متباعدة، لأن كلا منهما محكوم بوضعه العائلى وعاجز عن الفكاك من قيوده، فإذا كانت الحياة قد حرمتها من السعادة وعجزا نهائيا عن مقاومة نداء الحب فليكن «سرهما الصغير» إذن فى حدوده الدنيا من الخطأ الذى يحتمله ضميرهما الأخلاقى، ولتنحصر علاقتهما فى اللقاء المتباعد كل

بضعة أسابيع فى مكتبه وفى الاتصال التليفونى القصير كل بضعة أيام، وليطوى كل منهما صدره على حبه، وفى حنايا القلب سوف يعيش المحبوب مع محبه كل لحظة ولو كان بعيدا عنه، وفى خواطره الصامتة سوف يجرى معه كل يوم حواره الباطنى الجميل الذى يخفف عنه وحدته ووحشته، وتراضيا على ذلك منذ البداية واتفقا على عدم تخطى هذه الحدود، وسعد كل منهما بمعايشة الآخر فى أعماقه طوال الوقت، وأحس بأنه لم يعد يواجه تعاسته وحيدا كما كان يفعل من قبل، ودام سرهما الصغير ثلاثة أعوام على هذا النحو ثم جاءت النهاية المحتومة لكل قصة يعجز طرفاها عن تتويجها بالارتباط الكامل، وجاءت النهاية من ناحيتها مثلما جاءت أيضا البداية ! وكما يفعل الأمناء فى حياتهم مع الآخرين، أبلغته بعجزها عن احتمال تمزقها بينه وبين حياتها الأخرى مهما كانت تعاستها بها وبالتالى فقد حددت موعدا نهائيا لاسدال الستار على القصة القصيرة التى عاشتها معه بلا ندم ثلاث سنوات جميلة من حياتها، وحددت له أيضا موعدا للقاء الأخير، وجاءت إليه فى مكتبه كما كانت تجىء من قبل، وتحدثت إليه بنفس اللهجة الحانية التى كانت تتحدث إليه بها كل مرة، وبالغت هذه المرة أكثر من غيرها فى تأكيد مشاعرها الصادقة تجاهه ووجد نفسه يستجيب لحرارتها المضاعفة، فينطلق لسانه بالتعبير عما يحمله لها من مشاعر طاغية أكثر مما فعل طوال علاقته بها، ثم ودعته فى نهاية اللقاء واتجهت إلى الباب وقبل أن تفتحه استدارت

نحوه ونظرت إليه نظرة طويلة معبرة خيل إليه من مجلسه وراء مكتبه أن الدموع تغطيها.

وظل هو جامدا فى مقعده ينظر إليها وعلى وجهه ابتسامة حزينة يحاول بها ألا يفقد تماسكه أمامها فى اللحظات الأخيرة.

وغابت وراء الباب واختفت من دنياه إلى الأبد، وفقدت حياته النسمة الرقيقة الوحيدة التى كانت ترطب جفافها، ورجعت حياة كل منهما إلى طريقها المعهود، ومن حين لآخر يسترجع مشاهد قصته معها منذ البداية فيشعر بلسع الحرمان، ويهدهد قلبه على الرضا بما أتيح له من سعادة قصيرة وبريئة معها، ويعزى النفس بأنه قد استمتع معها بضع سنوات بمتعة صافية من المشاعر النقية الصافية التى لم تشبها شائبة، ولم يرافقها شعور كبير بالذنب، لالتزام كل منهما بأن يظل «سرهما الصغير» فى إطار المشاعر والأحاسيس وحدها وبغير تلامس حسى يفسد على كل منهما سلامة النفس أو يحرج ضميره، فكأنما كانت قصته معها نقية كالسحاب الأبيض الذى لا تشوبه شائبة من سواد السحب الكثيفة.

واختفى كل منهما من مجال الرؤية والسمع بالنسبة للآخر لكنه لم يخرج أبدا من وجدانه أو مخيلته!

ففى كل صباح كما تعاهدا فى اللقاء الأخير يستدعى كل منهما فى اللحظة التى يفتح فيها عينيه لاستقبال يوم جديد، صورة الآخر وصوته إلى مخيلته ويدير معه حوارا قصيرا

صامتا، ثم ينهض إلى الحياة شاعرا بأنه ليس وحيدا فيها ومن حين لآخر يستعيد كل منهما مشهد اللقاء الأخير بينهما، ويتعجب لحرارة العواطف الطاغية التى غلبت عليه خلاله ويتساءل لماذا لم يسمح كل منهما لعلاقته بالآخر بأن ترتفع إلى هذه الذرى العالية من الحب والعمق والصراحة إلا فى لقائهما الأخير؟ فلا يجد تفسيرا لذلك سوى أنهما كانا يعرفان ما ينتظرهما بعد اللقاء الأخير من حرمان، فأرادا أن يتزوّدا من حرارة الحب والمشاعر بأكبر زاد ممكن قبل الفراق، كما يفعل من يستعد لصوم طويل فيسرف فى احتساء الماء قبل أن يبدأ نهار الصوم !

ورجع كل منهما إلى مألوف حياته.

واستمر التواصل العاطفى بينهما بغير اتصال أو لقاء وبعد ثلاث سنوات من لقائهما الأخير ذهب إلى مكتبه ذات يوم فى الصباح مكتئبا وفاقد الرغبة فى الأشياء.

وجلس إلى مكتبه يشرب القهوة، ويتصفح الجرائد فى فتور وجاء إليه وكيل المكتب حاملا كومة صغيرة من الخطابات والمراسلات، ووضعها أمامه فلم يلتفت إليها، وواصل قراءة الصحيفة فى صمت فقال له الوكيل أن بالمكتب عميلين يرغبان فى مقابلته لشأن جديد فى قضية كل منهما، فقال له فى سأم إنه لا يشعر بأى استعداد اليوم لاستقبال أى زبون أو للحديث

فى أية قضايا، وطلب منه احالتهما إلى أحد مساعديه أو تحديد موعد آخر لاستقباله لهما.

وقبل أن يغادر المكتب قال له الوكيل : ألن تفتح الخطابات على الأقل لعل أحدها يكون هاما ويتطلب اجراء لا يحتمل التأخير ؟

فهز رأسه موافقا وخرج الرجل من المكتب، فوضع الجريدة ومد يده إلى الخطابات وتصفحها فى قنوط بغير أن يفتحها ثم توقف أمام أحدها فجأة وتنبهت مشاعره الخاملة بشدة وهو يدقق النظر فى الخط الذى كتب به اسمه على الغلاف وقلب الخطاب ليعرف اسم المرسل فوجده خاليا منه، فتصاعد اهتمامه به إلى الذروة وفض غلافه فوجد بداخله ورقة زرقاء مكتوبا فيها هذه الكلمات :

إليك وحدك..

يا قَدرى الجميل المحتوم الذى حرمتنى منه السماء.

أنت معى فى كل لحظة رغم البعد.

أحملك معى واتلمّسك داخلى .

وأردد أغنيتى الأبدية معك.

ليست هناك مسافات تفصل بيننا مادام كل منا يحمل الآخر معه! أحافظ على موعد الصباح معك كل نهار، وأثق فى إنك تحافظ عليه مثلى.

اشتقت كثيرا لرؤيتك لكنى أقاوم !

قررت أن «أكافىء» نفسى على صلابتى وقوة إرادتى طوال السنوات الثالث الماضية، بأن أمنح قلبى وعينى فرصة أخرى لرؤيتك من جديد على البعد.

أرجو أن تذهب إلى النادى صباح يوم الجمعة ٢/٤ المقبل لتتناول إفطارك مع أفراد اسرتك فى الحديقة الخلفية فى الساعة العاشرة صباحا، وأن تبقى بها لمدة ساعتين على الاقل وسوف أكون مع أسرتى على مائدة أخرى قريبة فى نفس المكان نتناول أيضا إفطارنا احتفالا بمناسبة غالية لا يعرف أهميتها سواك ! إنه عيد حبنا السادس وذكرى مرور ستة أعوام على لقائى الأول معك فى مكتبك.

ولسوف تكون ساعات الصباح هذه أجمل أوقات الحياة بالنسبة لى رغم أنى لن أتحدث إليك أو أسمع صوتك إذ يكفينى أن أراك وأنت تدخل الحديقة، وأن أختلس النظر إليك طوال ساعتين أو أكثر وأن اتنفس الهواء الذى تتنفسه.

فلا تنس موعدنا يوم الجمعة مع حبى الأبدى لك، والتوقيع : لك وحدك !

وانتهى من قراءة الرسالة، فشعر بالدماء تسرى فى عروقه من جديد وأحس بنشوة طاغية، وحيوية زائدة غابت عنه منذ زمن طويل، واستمتع بقراءة الرسالة مرات ومرات وتشممها أكثر من مرة كأنما يستروح فيها رائحة عطرها.

ثم هتف لنفسه بصوت مسموع : لتهنأ لها الحياة حيث تكون ولتظل هى إلى الأبد سحابتى البيضاء التى تخفف عنى هجير الأيام.

أما أنا فلابد أن أبدا من الآن فى « تأليف » قصة مقنعة أبرر بها دعوتى للأسرة للذهاب إلى النادى صباح ذلك اليوم الموعود، وسوف أجدها بكل تأكيد ولن أفرط فى هذه الفرصة الذهبية مهما كانت الظروف والأحوال، وسيكون يوما سعيدا يعوض جفاف الأيام الماضية، ويمدّنى بزاد جديد يعيننى على احتمال الأيام التالية!

ثم ضغط على الجرس المجاور لمكتبه فجاءه الوكيل مستفهما وهمّ بأن يقول له إن العميلين يجلسان الآن مع مساعديه ففوجىء برئيسه يبادره بنبرة « إدارية» جديدة : أين العميلان اللذان يرغبان فى مقابلتى ؟ ادعهما فورا واحدا بعد الأخر واعتذر لهما عن تأخرى فى استقبالهما. فالاعتذار عن عدم مقابلة العملاء ليس من حسن إدارة العمل ومادام قد جاءا فلابد من أن اهتم بأمرهما بنفسى !

ولاحظ الوكيل حيوية محاميه الطارئة، فابتسم مرحبا ومؤيدا وغادر المكتب وهو يضيف هذا «الدرس الجديد» من دروس الإدارة إلى ما سبق أن تعلمه منه خلال سنوات عمله معه التى تجاوزت العشرين !







القهر يا حبيبى!

عصر يوم الخميس انتهى عناء يوم العمل الطويل فى الشركة ورجع كمال إلى بيته مجهدا يخفف من إحساسه بالتعب ترقبه للبهجة الوشيكة فى مثل هذا الوقت من حياته العائلية كل أسبوع، ورجع الطفلان من المدرسة وتفرغا للعب والمرح وأعدت ثناء غداء الخميس المميز وسوف يجتمع شمل الأسرة الصغيرة حول مائدة الغداء لأول مرة منذ بداية الأسبوع فيحظى بأنس صحبة زوجته وطفليه ساعة الطعام، وبعده سوف يدخل إلى غرفة نومه ويستلقى لساعتين وينهض من نومه فيجدها قد اعدت كل شيء للسهرة البهيجة فيقضى بعض الوقت مع الطفلين أمام التليفزيون، ويتبادل الحديث مع زوجته فى انسجام ثم تدفع الصغيرين إلى غرفتهما وتهدهدهما حتى يستسلما للنوم المطمئن فتدخل غرفة نومها وتستكمل زينتها ثم تخرج إلى غرفة المعيشة وتجلس إلى جواره أمام التليفزيون وأمامهما أطباق الفستق والسودانى واللب وبراد الشاى وتبدأ الفقرة الأخرى من سهرة الخميس.

استرجع كل ذلك فى ذاكرته وهو يقترب من باب شقته

فوشت اساريره بالارتياح وطرق الباب فاستقبلته ثناء بالابتسامة الجميلة والطفلان بالصخب البهيج وتناول الغداء مع اسرته ودخل غرفة نومه فقال لزوجته وهى تستعد لمغادرته :

– ماذا ستفعلين الآن ؟

فأجابته بأنها ستنشغل بعض الوقت بإعداد الطعام لعشاء السهرة، ثم تدخل الحمام وتجرى بعض المكالمات التليفونية وتراقب الطفلين.

وأغلقت عليه باب الغرفة، وسمع صوتها الحنون يحذر الطفلين من ازعاج بابا خلال نومه، فارتسمت ابتسامة خفية على وجهه واستسلم للرقاد.

صحا من نومه على يدها تهزه برفق، ورآها فى فستانها الجميل وقد عقصت شعرها للوراء وتألق جمالها بالحيوية والنضارة فنهض وارتدى بنطلونا وقميصا ومشّط شعره ونثر رذاذ الكلونيا فى وجهه وعنقه، ثم خرج إلى غرفة المعيشة ورأى الطفين يجلسان على الأرض أمام التليفزيون فجلس إلى الأريكة يتابع معهما الفيلم القديم.

جاءت الجميلة فجلست إلى جواره ومدت يدها فى تكاسل إلى طبق المكسرات وقدمت إليه بعضها ثم راحت تشاهد الفيلم فى صمت. انتهى الفيلم القديم وبدأت معركة كل ليلة مع الطفلين لإقناعهما بالاكتفاء من السهرة بهذا القدر، ودخول الفراش استعدادا ليوم طويل فى العطلة الأسبوعية، وفشلت

محاولات الطفلين المعتادة فى الاستنجاد به لكى تسمح لهما امهما الجميلة بالبقاء معهما وقتا آخر واضطرا فى النهاية لتقبيل ابيهما ودخول غرفة النوم.

غابت ثناء فى غرفتهما بعض الوقت ثم رجعت مبتسمة تحكى لزوجها فصلا جديدا من ابتكارات ياسر الصغير لإطالة الوقت الذى تقضيه معه الأم قبل نومه.

ثم مدت يدها إلى التليفون وأدارت رقما أكثر من مرة ثم وضعت السماعة يائسة وقالت لزوجها : لا أحد فى المكتب ! فهز رأسه وقال : لابد أنه قد غادر المكتب فى طريقه إلينا ـ ثم رجع لمشاهدة التليفزيون.. تشاغلت ثناء بعض الوقت بأحداث الفيلم الاجنبى المعروض، ثم نهضت وتوجهت للشرفة وغابت فيها لفترة قبل أن ترجع لزوجها قائلة :

– لا أثر لسيارته فى الشارع.

أمسك بيدها يدعوها للجلوس إلى جواره والاطمئنان وقال : سيأتى متأخرا عن موعده بعض الوقت كعادته فلا داعى للقلق !

جلست إلى جانبه صامتة، وراقبها هو خفية فرأى بوادر القلق ترتسم على الوجه الجميل، فقال لنفسه : لماذا يتأخر «الوغد» كل مرة كأنما يختبر «أهمّيته» بالنسبة لنا متعمدا ؟

رجعت لمحاولاتها مع التليفون وهو يرقبها صامتا، ثم سمعها تقول بعد فترة أخرى : أف الفيلم ممل، لماذا تأخر ؟

لم يجب على سؤالها وتساءل معها فى أعماقه، نعم لماذا

تأخـر.. ولماذا لا يتـصل بنا إذا اضطرته الظـروف للتأخـر لكى يعتذر لنا ويبـشرنا بقدومه السـعيد بعد حين ؟ ترى هل يتـعمد ذلك، أم إنها مجرد مصادفة تكررت كـثيرا ؟ فى أمسيات مماثلة تخلّف عن موعـده بلا اتصال من جـانبه حتى اكـتأبت الجـميلة وحلّ بهـا الضـيق والسأم، فـفـسدت «السـهـرة» ولم تفلح أية محاولات من جديد، وانقضت الليلة وهى تشكو الصداع وتتخفى عنه بدموعها وتاثر برنامج يوم الجمعة أيضـا باكتئابها فأمضت النهـار كله صامـتة لا تسـتـجيب لاية مـحاولة لاخـراجهـا عن صمتها.

علّمـته تجربة الأيـام أن يتفادى الاحـتكاك بها فى مـثل هذه الأحوال، كما علمـته حكمة القهر المرير من قـبل أن يسلّم بحبه لها الذى لا حيلة له فيه، وضعفه معها وعجزه عن الابتعاد عنها، فسلّـم بما لا يريد ولا يحب «وتعـايش» مع الواقع الذى لم يكن ليقبل به لو كان زمام قلبه بيده وليس بيدها.

أفاق من خواطره على صوتها الملول يقول : تجاوزت السـاعة الحادية عـشرة ولم يأت طبعـا لابد أنه قد وجد اصدقـاء أفضل منا ليسهر معهم فى الخـارج الليلة بدلا من أن يحبس نفسه معنا بين جدران شقتنا !

استهدى بحكمة القهر والتجربة فقال لها بصوت هادىء :

– لا تظلمـيـه فهـو لا يعطّله عنـا إلا أمر قـهـرى ولعله يدق الجرس علينا بعد قليل.

قالت له فى لهفة : اتظن ذلك ؟

فهـز رأسه بالايجاب باسمـا، ورجع لمشاهدة أحـداث الفيلم وهو ينفث دخان سيجارته فى هدوء !

درس جديد تعلمه من محنة الحب والقـهر الذليل ألا يجاريها فى لومـه إذا لامتـه فى غـيابه، حـتى ولو من باب مـجـاملتهـا واسـتـرضـائهـا، وإلا انقلبت على الفور لـلدفاع عنه، واتهـامه هو بالتجنّى علـيه «وكراهيتـه» فى حين أنه لا يضـمر له هو إلا كل الود والتـقدير! وتنـفجـر المشـكلة وتنقضى الـليلة فى خصـام وشـجـار، وتـتـجـهم فى وجـهـه لعـدة أيام حـتى ينجح فى استرضائها بعد العناء.

سلّم منذ وقت طويل بـما يكره بل ووجـد نفـسه يحـاول أن يقنع عقله المتمرد «بالحـدود» التى تؤكدها هى له وتقسم عليها باكية عند الحساب.

وبعد مـصادمـات البداية العنيـفة، وفتـرات الهجر والـمطالبة بالطلاق، ورفض العودة إلى البيت وجد نفسه لا يجد فى النهاية من يسـتطيع التأثيـر عيـها واقناعـها بالتـخلى عن طلب الطلاق والعـودة إلى البيت سـوى الآخر الذى تأخـر الليلة عن مـوعده، فزاره فـى مكتبـه طالبا تدخله لديهـا إنقاذا للبيت من الانهـيار، وتحـمل صابرا « لوم » الآخـر له على سـوء ظنه بأخـلاقيـات زوجته وأخلاقياته هو، طالبا منه أن يطرد هذه الأوهام السخيفة

من رأسه، لأنه لا تجمع بينهما إلا أواصر العشرة والاحترام المتبادل.

وقال مختتما «مرافعته» دفاعا عنهما : أنت تسيء الظن بأخلاقى يا صديق ولست ألومك فى ذلك كثيرا، لأنك فى النهاية رجل وتفكر كبعض الرجال، ولكن كيف تسيء الظن بأخلاقها هى وقد عرفتَها كل هذه السنين، ولابد أن تكون قد عرفت كم هى شديدة الاعتزاز بكرامتها وشديدة الحرص على زوجها وطفليها ولا يمكن أن تتخلى عن التزاماتها الأخلاقية مع أى إنسان ؟

ثم بذل مساعيه الحميدة مع ثناء فإذا بالغمّة تزول على الفور، وإذا بها ترجع إلى البيت بغير ممانعة وتعود الحياة إلى مجاريها بينهما بعد أن كان قد سلّم باليأس منها.

وحين عاتبته فى لحظة صفاء على «سوء ظنه» بها بعد أكدت له أنها لا تريد هدم البيت الصغير وتهديد سعادة الطفلين تقول له نفس العبارة التى قالها له الآخر ولكن بطريقة عكسية ! فقالت :

– ربما ألتمس لك بعض العذر فى شكّك فى إخلاصى لك بغيرتك الجنونية وحبك لى، لكن كيف تشك فى أخلاقيات «فلان» وهو الرجل الجاد الذى لا يقبل بالعبث ؟

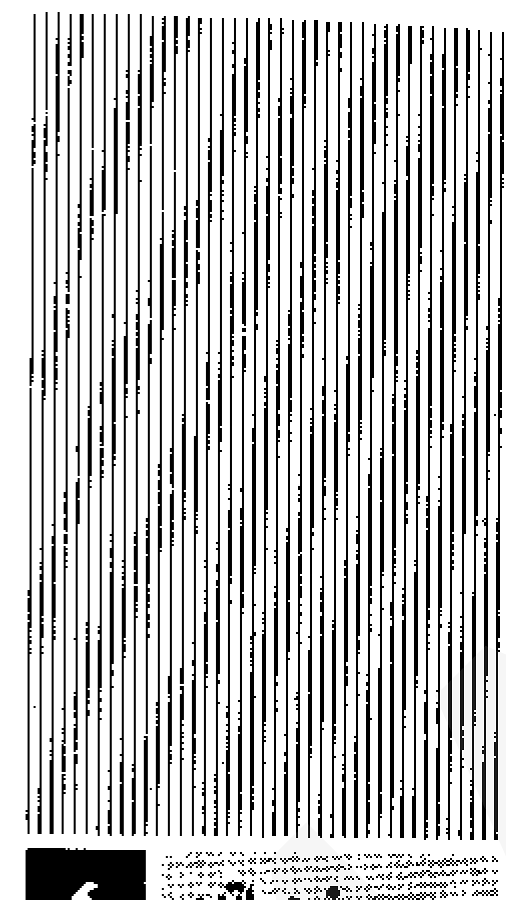
ثم راحت تذكّره بصدق إخلاصه له ولأسرته وكيف وقف إلى جواره فى كل الشدائد وكيف بكى منزعجا حين كسرت

ساق طفلهما وهو يلهو بالدراجة، وكيف بكى بالدمع الغزير يوم فاجأته هو آلام الزائدة الدودية ولازم المستشفى حتى تمت الجراحة بسلام وغادره، وكيف.. وكيف.. وكيف حتى اضطر «فى النهاية للاعتذار» عن سوء ظنه به والتمس لنفسه العذر فى حبه الشديد لها وغيرته عليها من النسمة العابرة !

ومضت الحياة فى طريقها بعد ذلك بلا صدامات عنيفة، وكلما استسلم لغيرته أو ضاق ببعض الأمور رد نفسه إلى «الحكمة» والتمس الطمأنينة فى بعض المظاهر المطمئنة «وتذكر» أنها لا تغادر بيتها إلا معه، وإن صديقهما لا يزورهما إلا فى حضوره، ولا يجيء بغير دعوة منهما معا، ثم استقرت الحدود فأصبحت سهرة الخميس خالصة لهما معه إما فى الخارج أو فى بيتهما، وأيًا كانت الظروف فلقد عرف بالتجربة إنها لا تستجيب له إلا عقب انقضاء السهرة المشتركة التى تتألق فيها دائما بالحيوية والابتهاج والمرح، فإذا تخلّف عن المشاركة فى سهرتهما الأسبوعية حلّت الكآبة على روح الجميلة وفقدت الرغبة فى الأشياء وأسرعت تتناول قرصها المنوم لتهرب إلى النوم غاضبة ومكتئبة، حتى لقد وجد نفسه بعد فترة من الوقت لا يقل «حرصا» عنها على مشاركته لهما هذه السهرة الأسبوعية طلبا لسلام معها، وأملا فى عتدال معنوياتها بعدها ! كما أثبتت له التجربة أيضا فائدة « ايجابية » أخرى إذ كان كلما ركبها العناد فى أمر اختلفا حوله بشدة لم يجد غيره لإقناعها بما لا تقتنع به، ولقد طال بهما الجدل ذات مساء حول مسألة

عائلية، فلم يجد حجة أكثر اقناعا لها من أن يبلغها بأن «فلانا» يؤيده فى رأيه، فإذا بحدّة الجدل تتراجع وإذا بصوت العقل يغلب على صوت الانفعال، وإذا بها تتساءل متراجعة : أحقا ما تقول ؟ إذن ادعه للعشاء معنا لأعرف مبرراته لتأييد هذا الرأى !

استغرق فى خواطره فلم يتنبه إلى إنها قد اختفت من جواره، ونهض يبحث عنها فوجدها فى الشرفة تترقب وصول الغائب فافتعل المرح قائلا لها إنه لابد من محاسبة فلان على هذا التأخير وتغريمه دعوة عشاء فى مطعم فاخر وأومأت برأسها موافقة وهى مشغولة بالنظر للشارع ثم فجأة تهللت ملامحها وأدارت رأسها إليه فى «انتظار» تقول إنه قد جاء فشاركها «الابتهاج» بالخبر السعيد، وتوجه لفتح الباب وهو يفكر فى كلمة العتاب الضاحك التى سيستقبله بها، لكنه ما أن اقترب من الباب حتى كانت ثناء قد سبقته إليه ومدت يدها وفتحته فبدا الآخر وراءه حاملا علبة كبيرة يعتذر مبتسما عن تأخيره، فانهال العتاب الملائم وضجّ المسكن الصامت بالضحك والمرح، واطمأن كمال إلى أن السهرة تمضى أخيرا فى طريقها السعيد !



صور من حياتهم ٤

أوراق الشجرة !

خرج الزائر الأخير من غرفة الكشف بالعيادة مودعا طبيبه فرجع الطبيب الكبير إلى مكتبه مجهدا واسترخى فى مقعده، ومد يده إلى المسجل القريب وضغط زراره فانطلقت الموسيقى الخافتة، ثم أشعل سيجارة راح يسحب دخانها بعمق وهو يتأمل الشجرة المعدنية الصغيرة الموضوعة فوق مكتبه منذ سنوات وتتدلىّ من فروعها أوراق على شكل براويز صغيرة يتضمن كل برواز منها صورة لأحد أفراد أسرته، فتتدلى من الفرع العلوى صورتان احداهما له والأخرى لفكرية زميلته القديمة بكلية الطب وحبيبة سنوات الشباب والكفاح، وتتدلى من الفروع الوسطى صورتان لنهال الابنة الكبرى الحبيبة ووسام الابن الشاب الغالى، وتتدلى من الفروع السفلى صورتان أضيفتا حديثا إلى الشجرة احداهما لعصام خطيب نهال والثانية لنشوى خطيبة وسام، وبقيت أوراق بقية الفروع خالية تنتظر من يشغلها بصور الأحفاد والأحباء حين يجيئون إلى الحياة، فهل يمتد العمر لكى يرى كل الأوراق مشغولة بصورة هؤلاء الأحباء ؟

وهل يجىء اليوم الذى يحتاج فيه إلى إضافة فروع أخرى

للشجرة القديمة لكى تتسع لكل الأعزاء ؟

فكرية كانت صاحبة فكرة هذه الشجرة ومبتكرتها، وبحيويتها المألوفة وقدرتها على تنفيذ أفكارها توجهت بغير علمه إلى أحد محلات الفضة بخان الخليلي، وقدمت لصاحبه رسما للشجرة التى تريدها والفروع التى تتدلى منها والأوراق التى تصنع على هيئة براويز يمكن وضع الصور بها.

وفى ذكرى عيد زواجهما السادس، قدمت إليه هذه الشجرة الفضية وفيها صورته وصورتها وصورتا الابنين الغاليين، وطلبت منه أن يضعها على مكتبه بالعيادة ليتذكر دائما هذه الأسرة التى تحبه وتعتز به، ثم اضافت ضاحكة : ولكى تذكرك أيضا بمن يعتمدون عليك فى حياتهم كلما حاولت إحدى مريضاتك إغواءك أو اجتذابك إليها !

فلازمته هذه الشجرة منذ ذلك الحين واستقرت فوق مكتبه بالعيادة، وتنقلت معه من عيادة الحى الشعبى الذى بدأ فيه حياته العملية إلى العيادة الجديدة التى افتتحها فى إحدى العمارات الحديثة بالحى الراقى منذ عشر سنوات بعد أن حقق نجاحه وأصبح استاذا بكلية الطب له تلاميذه ومريدوه مثلما ارتقت أيضا زوجته وأصبحت استاذة فى تخصصها، وجنيا ثمار نجاحهما الوئيد خطوة بعد خطوة، فانتقلا من المسكن الضيق بالحى الشعبى إلى المسكن الواسع المطل على النيل، وأصبح لكل منهما سيارة يذهب بها إلى عمله، وانضما إلى

النادى العريق الذى طالما تمنيا اجتياز أبوابه وهما طالبان بكلية الطب يحلمان بالجب والسعادة والنجاح، وأصبحت لهما حياة اجتماعية لائقة، وتقدم الأبناء فى مراحل التعليم وسعدت الأسرة الصغيرة بأوقاتها معا، وبفترات الأجازات القصيرة التى تختلسها من مشاغل الحياة لتقضيها معا.

وزادت الإيرادات فأصبحت لها مدخرات تتراكم مع السنين، وجاءت الفرصة لاقتناء «شاليه» مستقل على البحيرات المرّة بفايد، فلم تتردد فكرية بحيويتها المألوفة فى اقتناصها، ونهضت بمهمتها المحمودة فى تاثيثه وتجميله حتى أصبح واحة صغيرة جميلة تهرب إليها الأسرة مساء الخميس من كل أسبوع، وترجع منها مساء الجمعة وتقضى بها العطلات والأعياد واجازة الصيف.

ثم جاءته نهال الحبيبة ذات يوم لتقول له فى حياء أن هناك «شخصا» ما يريد أن يقابله وأنها ترجوه أن يترفق به حين يجيء إليه وألا يحرجه بالسؤال عن أحواله وامكانياته المادية.

وخفق قلب الأب حين سمع ذلك من ابنته ونظر إليها متعجبا من نفسه وكأنما قد اكتشف فى هذه اللحظة فقط أن ابنته لم تعد تلك الطفلة الحبيبة التى تغالى فى إظهار حبها وحنانها لأبيها وأمها وشقيقها، وإنما قد استوت شابة جميلة بدأ قلبها يتفتح للحب ! وفى خجل مماثل لحيائها سألها برفق : هل تحبينه ؟

وأغضت نهال ببصرها متوردة الخدين صامتة .

فابتسم الأب وهو مضطرب المشاعر ثم اجتذب ابنته إليه وقبّل جبهتها وطلب منها أن تدعو هذا الشخص لزيارته فى بيته مؤكدا لها أنه سوف يترفق به ويقدر ظروفه.

وجاء علاء فى الموعد المحدد وللوهلة الأولى لم يستطع أن يحدد مشاعره تجاهه، هل ضاق به لأنه قد أصبح غريمه فى قلب ابنته الحبيبة، أم سعد به لأنه كما رآه شاب مهذب خجول، يطرق البيوت من أبوابها وسوف يسعد به قلب ابنته.

وانعكس تضارب مشاعره على معاملته له فتردد بين الترحيب به بحرارة وبين التحفظ اللاإرادى معه، ثم حسم الأمر بينه وبين نفسه بعد جلسة التعارف الأولى بالميل للترحيب به ومنحه الفرصة لأن يكتسب مودته وثقته.

وشهدت الأسرة الصغيرة جدالا عنيفا لبعض الوقت حول هذا الشاب، فقد رأت فكرية أنه وإن كان من أسرة طيبة إلا أنه لا يملك شيئا ولا يعد مستقبله بإمكان تغلبه على مشاكله المادية، وأيدّها وسام فى تشاؤمهما فضاقت نهال برأى أمها وشقيقها واستنجدت بأبيها لينقذ حلمها من معارضة الأم والأخ، وبعد عدة لقاءات تالية بين الأب وهذا الشاب، حسم الأب الموقف بإعلان تأييده لاختيار ابنته وعارضت فكرية بقوة فى البداية حتى اضطر لأن يذكرها ببداياته معها وبدايتها هى أيضا، حين كانا يرجعان من كلية الطب محشورين فى الاتوبيس

المزدحم أو سائرين على الأقدام إلى الحى الذى يقيمان فيه توفيرا للنفقات.

وانتهى الأمر بقبول علاء وسعدت الابنة الغالية بانتصار الحب على المعوقات والعقبات، وحدد الأب لغريمه الجديد فى قلب ابنته مواعيد محددة للزيارة وطالبه بالعمل بجد لكى يضع قدمه على أول الطريق، واستمرت الخطبة ثلاث سنوات تخرج خلالها علاء فى كليته النظرية وعمل معيدا بنفس كليته وتخرجت نهال فى نفس الكلية والحقها الأب بعمل بإحدى الهيئات واشترى لابنته شقة ملائمة، وقدم للشاب كل التسهيلات اللازمة لاتمام الزواج. وتزوجت نهال فى حفل جميل وانتقلت إلى بيت زوجها وأحس الأب بعد زواجها بفراغ رهيب اضطربت له مشاعره لعدة أسابيع تالية غير أن الحياة قد مضت فى طريقها المعهود، وألف الأب خلو بيت الأسرة من زهرته الحانية وعرف مباهج جديدة عوضته عن حرمانه من وجود ابنته بالقرب منه، فأضيف إلى رحلات الأسرة الأسبوعية للشاليه وإلى اجازاتها وعطلاتها ضيف جديد، وأضيفت إلى الشجرة المعدنية صورة أخرى، وطابت الحياة لنهال مع شريكها الشاب.

فلم يمض على زواجها بضعة أسابيع حتى وجد الأب وسام يهمس إليه قائلا فى تردد : أبى أريد أن اتحدث معك خارج البيت وخارج العيادة !

وخفق قلب الأب من جديد، وأدرك بحسه أن الدور قد جاء على وسام لأن يغادر البيت بعد قليل هو الآخر ويخلو مسكنه عليه وعلى فكرية وحدهما، وفى الكازينو القريب جلس الأب وابنه على شاطىء النيل، وبدأ الابن الشاب الحديث المرتقب عن أمله فى السعادة ورغبته فى الارتباط بمن اختارها قلبه، واتسعت ابتسامة الأب وهو يؤكد له تأييده له فى هذا الأمل، ثم تساءل :

– ولكن لماذا أردت أن تصرح لى بذلك بعيدا عن البيت وبعيدا عن أمك ؟

وجاءت الاجابة نذيرا بالجحيم، فلقد اختار قلب الابن فتاة من أسرة مكافحة لم تحصل على شهادة جامعية، وجذورها الاجتماعية بسيطة، وقدّر الرفض المتوقع من جانب الأم الحريصة على المستوى العائلى والاجتماعى للأسرة، فأراد الاستعانة بأبيه على معارضة أمه المتوقعة.

وانفجرت الأزمة على نحو أشد هذه المرة وتمسكت الأم برفض هذه الفتاة ورفض الموافقة عليها وطالت الجهود لإقناعها بها حتى هدد الشاب بالخروج على طاعة الأم وهجر البيت والزواج من فتاته والإقامة معها فى مسكن أسرتها البسيط.

وفى مساء الخميس التالى رفض الابن أن يصحب أبويه فى رحلتهما الأسبوعية إلى فايد ولم يعترض الأب على ذلك وإنما

رآها فرصة ملائمة للانفراد بزوجته ومحاولة التوصل معها إلى حل وسط للمشكلة.

وفى هدوء الشاطىء فى الصباح المبكر رجاها أن تسلّم بحقائق الحياة وتعترف بأنه إذا انعقدت إرادة الأبناء على اختيار لا يلقى قبول الأبوين فلن يكون لاستمرار رفضهما فى النهاية من عائد إلا وضع هؤلاء الأبناء أمام الاختيار القاسى بين الحب وبين الآباء والأمهات، وقليلا ما يحسم هذا الاختيار لصالح الآباء والأمهات.. فما جدوى استمرار المعارضة إلا دفعهم للخروج على طاعتنا ؟

وبكت فكرية طويلا واكتأبت وطال اكتئابها حتى اضطر لاستشارة أحد زملائه من اساتذة الطب النفسى فى علاج الاكتئاب البسيط، واستغرق الأمر عدة أسابيع أخرى قبل أن تسلم فكرية بالأمر الواقع، وتكفّ عن المعارضة، وبدأت خطوات الارتباط.

وشهدت الأسرة عدة أزمات صغيرة بدأت كلها من جانب فكرية ووجد نفسه خلالها حائرا بينها وبين ابنهما ووصلت الأزمة إلى ذروتها حين خرجت فكرية عن اتزانها واتهمت زوجها بمناصرة ابنها ضدها وتشجيعه على عدم الاعتداد برأيها، وأتْبعت ذلك بمقاطعته وهجرها لغرفة نومه إلى غرفة نهال الخالية، حتى غضب هو الآخر وهجر البيت وأقام فى العيادة، ونام على مائدة الكشف لعدة أيام، إلى أن فوجىء

بفكرية أمامه ذات مساء ترجوه العودة إلى بيته، وتعتذر له.

واشترى الأب لابنه الوحيد شقة مناسبة، وتم الزواج، وخلا مسكن الأسرة منه إلا فى المناسبات العائلية والعطلات، ودعوات الغداء أو العشاء.

واضطربت حياة فكرية بعد زواج ابنها اضطرابا شديدا فكثر استسلامها للصمت والاكتئاب، وكثرت مشاحناتها مع زوجها وتعاملها معه بعصبية وحدّة، وازدادت هواجسها وشكوكها فى الآخرين حتى امتدت إليه، فبدأت تتهمه بالاهتمام بطبيبة شابة من تلاميذه وتقول إنه يقضى معظم أوقاته فى الكلية معها وأنها تزوره فى العيادة بزعم مساعدته فيها، لكن ذلك فى الحقيقة ليس سوى ستار لإخفاء علاقته بها! وبلغ الأمر قمته حين بدأت تفاجئه بزيارات غير متوقعة فى العيادة وتقتحم عليه غرفة الكشف لتضبطه فى موقف غرامى، مع هذه الطبيبة حتى طلب من الطبيبة الشابة عدم زيارته بالعيادة تجنبا للمتاعب.

وشهدت سماء الأسرة غيوما جديدة من نفس النوع حتى اضطر الأب للشكوى إلى ابنته الحبيبة من تصرفات أمها ورجاها التدخل لديها لاقناعها بخطأ شكوكها، واستجابت نهال الغالية، ورجعت للاقامة فى بيت الأسرة بعض الوقت لتلازم أمها وتؤنس وحدتها، وتدفع عنها الشك فى اخلاص أبيها.

ونجحت نجاحا مؤقتا فى ذلك، واستقرت الأوضاع نسبيا بعض الوقت لكن عاصفة الشكوك والاتهامات رجعت من جديد

بصورة أشد وتوترت العلاقة بين الزوجين على نحو خطير لم تشهده من قبل، حتى اعتصم الزوج مرة أخرى بعيادته، وطلب تدخل الابنين بينه وبين أمهما.

وها قد مضى اليوم الخامس عشر منذ هجر البيت وأقام فى العيادة ولم ينجح الابنان بعد فى مساعيهما، فترى ماذا سيحمل له المستقبل من تطورات ومفاجآت، وكيف تعقدت الأمور على هذا النحو العجيب بين الزوجين اللذين تشاركا فى رحلة الحب والسعادة لأكثر من ٢٥ عاما ؟

أفاق من خواطره على صوت دقة خفيفة على باب غرفة مكتبه فرفع بصره إلى الباب مترقبا، ودخل الممرض العجوز الذى رافقه طوال سنوات العمل وقال له مبتسما :

– هل يريد الدكتور شيئا، قبل أن انصرف ؟

فرد الطبيب الكبير فى هدوء : شكرا يا عم حسين، مع السلامة!

– ألا تريد أن أحضر لك عشاء أو كوبا من الشاى.

– شكرا ، مع السلامة.

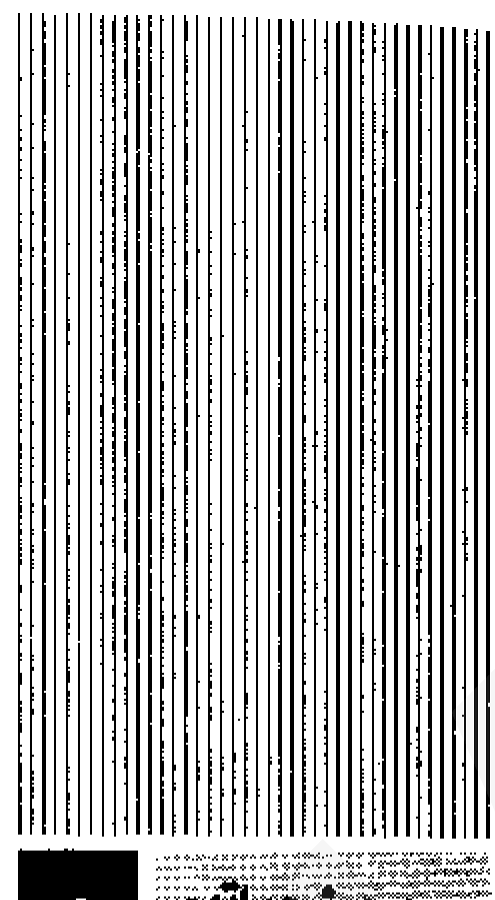
فانسحب الممرض العجوز من الغرفة، وخلا الطبيب بنفسه فاستقرت نظرته مرة أخرى على الشجرة المعدنية التى تحمل صورة الأحباء والأعزاء وتساءل الصوت الباطنى فى أعماقه :

– هل من العدل أن تفقد الشجرة إحدى أوراقها بدلا من أن

تستقبل أوراقا جديدة وليدة ؟ !

وهل كان ما سمعه من فكرية فى اللقاء الأخير بينهما عن طلبها للطلاق بعد هذا العمر مجرد تعبير خاطىء عن رغبتها فى تحذيره من أى تورط عاطفى بعيدا عنها، أم ترى إنها رغبة حقيقية لديها صنعها اضطراب اعصابها بعد زواج الابنين واحساسها بتقدم العمر وشكها فى قدرتها على الاحتفاظ به لنفسها دون الأخريات؟

تنهد الطبيب الكبير بعمق، ثم نهض من وراء مكتبه متجها إلى غرفة الكشف وهو يفك ازرار قميصه استعدادا لقضاء ليلة أخرى جافة وكئيبة على مائدة الكشف !



امرأة مستقلة !

وقفت أمام مرآتهـا تتفرس وجهها وتتـأمل فيه آثار السنين في هذا الوقت من الصبـاح ، كانت فى زمن مضـى . تتأمل المرآة كل يوم فـتطمئن إلى جمال القَـسَمات ، وأناقة الملبس ، ولمحة الكبرياء ، التى يشى بها أنفها المـرفوع ثم تسـوى شـعرها بيـديهـا وتنفث العطر المفضـل لديها فى وجههـا وعنقها وتحمل حـقيبة يدها وتتـهيأ لمغـادرة شقتـها ، فإذا اقـتربت من باب الخـروج سمعت غـالبا صخب الأطفال فى مسكن شقيقـتها المواجه لمسكنها ، ولم يكن نادرا أن تصطدم بأحدهم على السلم وهى فى طريـقها للنزول ، أو تجد باب شقـة أختها مفتـوحا فتراها بملابس البيت مـهوّشة الشعر ضـيقة الصدر تنهـر أحد أطفالها أو تحـذّر طفلاً آخر من إيذاء نفسـه أو تتشكـى من شقـاوة ثالث ومن « غلبـهـا » مع أطفالهـا ، فتبـتسم لها فى إشـفاق وتتبـادل معهـا بضع كلمات عابرة ، ثم تهبط السلم وهى تغبط نفسـها على أقدارها وحياتها المضيئة بالمقارنة بحياة شـقيقتها الكابية ، زواج وأطفال وحمل وولادة وأمـراض لا تنتهى لهـا ولأطفـالها وعـمل بلا بداية ولا نهاية فى البيت ، وأمسيات كئيبة بين مشاهدة التليفزيون وإعداد

طعام العشاء لجيش من الأطفال حتى لتكون أمنيتها كل ليلة هى أن ينام الأطفال بعد طول العناء لتلتقط أنفاسها بعض الوقت ، وتستعيد الإحساس بنفسها وبالحياة ، فما تكاد تفعل حتى يكون زوجها قد رجع إلى البيت ورجعت هى إلى المطبخ من جديد لتعد له طعام العشاء ، وليس بعيدا أن يتوقع منها بعد كل ما تحتمله من عناء طوال النهار أن تتهيأ لمجالسته وقضاء وقت سعيد معه ، فإذا لمس فتورها أو إعياءها ومغالبتها للنوم وهى معه ، انفجر فيها ساخطا ولاعنا ومتشكيا من عدم اعتنائها به ، وقد يشكوها إلى أمها ، فتأتى فى اليوم التالى من بيتها القريب وتعقد الجلسة التقليدية للصلح بينها وقد تستدعيها الأم للمشاركة فى إصلاح الحال بين شقيقتها وزوجها فتجلس إليهم كارهة تتعجل انتهاء الجلسة لتلح بموعد عملها فى المساء ، وتتعجب لجرأة زوج شقيقتها وافتقاده للحياء حين يتطرق بالشكوى إلى ما لا يصح الحديث عنه أمام الأم والشقيقة غير المتزوجة ، وتسمع فى رثاء خفى دفاع شقيقتها عن نفسها واعتذارها بأعمال البيت الشاقة ومطالب الأطفال التى لا تنتهى واحتجاجها على زوجها لتركها وحدها سجينة البيت كل أيام الأسبوع فى حين يخرج هو إلى أصدقائه كل مساء ويستمتع بأوقاته معهم ويرجع إليها معتدل المزاج ويتوقع ممن قضت يوما شاقا أن تكون مثله راضية البال رائقة المزاج وطالبةً للحب .

ويصخب الزوج محتجا بأنه هكذا كل الرجال ، ومع ذلك فإن

زوجاتهم يهتممن بأمرهم ، ولا يغالين فى الاهتمام بالأطفال على حساب حق الزوج عليهن .. الخ .

ويتطرق الجدال كل مرة إلى شكواها المزمنة من عدم مشاركته لها فى أعباء البيت والأطفال ، ومن قلة أوقات الترفيه والنزهات فى حياتها ، فحتى يوم الجمعة يفضل أن يقضيه فى البيت مسترخيا معظم أوقات النهار فإذا ألحّت عليه فى الخروج لم تكن نزهاتهما خارج البيت إلا زيارةً لبيت أسرته أو بيت أسرتها وفى مرات نادرة قد يترفق بها فيدعوها والأطفال إلى دار السينما المكشوفة فى ليالى الصيف ، وفيما عدا ذلك فلا نزهات ولا خروج ولا رحلات ، وتستمع هى إلى الشكوى التقليدية من الطرفين وهى تختلس النظر إلى ساعتها وتجود ببضع كلمات محايدة تتجنب فيها إغضاب أحد الطرفين وينتهى التحقيق دائما برجاء كل طرف أن يهتم أكثر باحتياجات الطرف الثانى منه ، وتختتم الأم الجلسة بعبارتها التوفيقية الخالدة :

— هيّا قبِّل رأس زوجتك ، وأنت قبّلى رأس زوجك !

فيفعل الاثنان بعد قليل أو كثير من الممانعة وتلمع نظرة الرضا القانعة فى عين أختها الخاملة ، ويتغير جو الجلسة تماما كأنما قد حلّت المشكلة من جذورها ، وتنصرف هى إلى حياتها اللامعة وهى تهنىء نفسها على أقدارها السعيدة وتقود سيارتها الصغيرة التى ادخرت ثمنها من مرتبها خلال أول عامين لها فى العمل وتتوجه إلى الهيئة التى تعمل بها وصورة أختها

المستسلمة لحياتها الرتيبة تلاحقها فى مخيلتها فتقول لنفسها فى صمت ، إنها جارية لا أكثر ولا أقل ، تقضى حياتها كلها بين المطبخ والمخدع ولا تعرف شيئا عن متع الحياة الحقيقية ، أما هى فلقد اختارت منذ تخرجت فى جامعتها أن تكون امرأة مستقلة لا تخضع لسلطان أحد ولا تحتاج لأن يعولها أحد ، ولا تقيّد نفسها بقيود القهر من أطفال وأبناء ومسئوليات عائلية ، وفى سبيل هذا الهدف الكبير عملت بجد وكفاح منذ تخرجها ونحّت عن طريقها خزعبلات من أعجبوا بها العاطفية ، وصدَت زميلها الشاب الذى شاع بين الجميع فى العمل أنه متيّم بها ويتمنى الارتباط بها ، وبسكّين باردة قطعت كل خيوط الأمل لديه فيها ، وقالت لنفسها ماذا تعدنى الحياة معه إلا بحياة كابية تستهلك طاقتى وحيويتى فى تدبير مطالب المعيشة والانكفاء على رعاية طفل أو طفلين .

لقد كرهت حياة أختها الباهتة الرتيبة وصممت على أن تكون لها حياة أخرى مختلفة ، وبإرادة من حديد مضت إلى هدفها فعملت بجد فى الهيئة التى توظفت بها ، وعملت ساعات إضافية فى المساء وتحمست لأداء كل المهام التى تطلب منها ، ورشحها جدّها لأن تتولى بعد ٥ سنوات فقط من العمل منصبا إشرافيا فأصبحت رئيسة للقسم الذى تعمل به ، ودخلت عالم المديرين اللامع فى هيئتها فشاركتهم مجالسهم واهتماماتهم واجتماعاتهم ونشاطه الاجتماعى ، وبعد ساعات العمل كثيرا ما شُغلت بمهام لامعة جليلة كحضور عشاء تقيمه الهيئة لأحد

ضيوفها الأجانب فى فندق كبير ، أو حضور حفل لتسليم الجوائز للعاملين المثاليين فى الهيئة ، أو حضور جلسات المؤتمرات التى تنتدبها الهيئة لحضورها والمشاركة فيها بل لقد انتدبت كذلك للمشاركة فى مؤتمرات عقدت فى الخارج فسافرت إلى بلاد جديدة وأقامت فى فنادق رائعة وعاشت حياة المديرين اللامعة ، ورجعت متوجة بالنجاح والانتصارات فقدمت تقاريرها إلى الرؤساء عن نتائج المؤتمر .

ثم أقدمت على خطوتها التالية لتأكيد استقلالها فعزمت على أن تستقل بمسكن خاص لها وأعلنت ذلك لأسرتها فهلعت أمها كثيرا لذلك ، واستعانت عليها بأشقائها وشقيقتها ، وجمعتهم عليها فى يوم مشهود من أيام العطلة الأسبوعية وولولت الأم شاكية وباكية :

– رفضت الزواج وفضلت عليه العمل مع أن كل الموظفات يتزوجن قبلنا بذلك رغم حسرتى على شبابها الذى يضيع بغير أن تتزوج وتنجب كزميلاتها اللاتى تزوجن وأنجبن وصار أبناؤهن فى المدارس ، والآن تريد أن تقيم وحدها وأنا على قيد الحياة ، فهل يرضيكم ذلك ؟ وماذا يقول الناس عن امرأة تقيم بمفردها فى مسكن خاص ولها أسرة وأشقاء !

وانفجرت المشكلة مدوّية فى مجتمع العائلة ، وألقى كل فرد فيها بدلوه ، وصمدت هى لكل الاعتراضات والانتقادات وكانت أقوى حججها على سلامة منطقها هو أن شقيقها الأصغر الذى

مازال طالباً بالجامعة يقيم مع أمه ، وسوف يتزوج بعد التخرج غالباً فى نفس الشقة ، وظروف عملها تتطلب منها أن تعمل فى الصباح وفى المساء وأن تحيا فى مسكن هادىء لا يعرف صخب الأطفال ولا زحام الزوار في كل الأوقات ، ومنزل الأم هو بيت العائلة الذى يجتمع فيه دائماً أبناء الإخوة والأخت وزوجاتهم ولا يخلو يوماً من الضيوف ، فكيف تستريح لمدة ساعتين فى الأصيل لكى تستطيع مواصلة العمل فى المساء وسط هذا الضجيج ؟

وفشلت كل المحاولات معها فكان الحل الوسط الذى أيده الأخوة الكبار وقبلت به الأم راغمة ، هو أن تستقل بمسكن خاص بها ولكن فى نفس العمارة التى تقيم بها شقيقتها المتزوجة لتكون قريبة منها ومن بيت الأم فى نفس الوقت ، وكانت الفرصة الذهبية التى يسَّرت هذا الحل السعيد هو وجود شقة خالية بهذه المواصفات فى نفس الدور الذى تقيم به الأخت ، وهكذا استأجرت هذه الشقة وأثثتها وانتقلت إليها وأصبحت كما قالت لنفسها حينذاك امرأة مستقلة بكل معنى الكلمة !

فأما القلب فقد ظل عازفا عن الخضوع لأحد حتى خفق بعد ذلك وهى تقترب من الثلاثين من عمرها لرجل من المتعاملين مع الهيئة ، فكانت خفقته تأكيداً جديداً « لاستقلالها » ورفضها لعبودية الزواج والأولاد !

فلقد أحبت رجلاً متزوجاً وله أبناؤه وأسرته ووضعه

الاجتماعى المميز ، وعرفت منذ البداية أنه لن يستطيع التخلى عن زوجته وأولاده ليتزوج منها فلم يمنعها ذلك من خوض التجربة حتى المياة العميقة وقالت لنفسها مبررةً هذا الاستسلام : وما حاجتها للزواج والإنجاب وقد اختارت « الحرية » منذ البداية ؟!

لقد عاشت حياتها بعد التخرج لا يشغلها شىء سوى العلم وتأمين مستقبلها المادى وتحقيق النجاح فى حياتها العملية فلم تعرف العبث ولم تتورط فى علاقات خاصة مع أحد ، وصمدت لكل محاولات الإغراء والتوريط التى تعرضت لها لأنها قد اختارت الحرية وليس التحرر بمعناه المتبذل ، ثم ظهر هذا الرجل فى حياتها فأيقظ المارد النائم فى أعماقها ، وشاءت لها أقدارها أن يكون متزوجاً وأباً وغير مستعد للزواج منها ، فهل تضحى بالحب بعد أن عثرت عليه من أجل هذه الاعتبارات « التافهة » ؟

لقد اختارت حياتها ولم تسمح لأحد بأن يختارها لها ولا مفر إذن من أن تقبل بالحب إذا تعذر الزواج وتستمتع بحبها وحياتها المضيئة وحريتها .

وفى ظلال هذا الرجل اتسعت أمامها آفاق جديدة لم تدخلها من قبل . فعرفت بهجة الحب والخضوع الإرادى لشخص آخر لا يقهرها بالأبناء والاحتياج المادى إليه ، وإنما بالحب والرغبة الحرة فيه ، رغم إغداقه عليها بالهدايا والفسح والرحلات .

وعرفت الأمسيات الجميلة فى المطاعم الراقية والنزهات الخلوية فى السيارة والرحلات الجميلة إلى الشواطىء وبل عرفت أيضاً السفر معه إلى أوروبا فى رحلات قصيرة إلى تركيا وقبرص واليونان ، وطوال ذلك كله كانت سعيدة بحياتها وراضيةً عنها فلم يكدر عليها بعض أوقاتها سوى انزعاج أمها وإحساسها بالقلق على حياتها ومستقبلها والسنوات التى تمضى بها حتى بلغت السن الحرجة بغير زواج ، كما لم يكن يكدر عليها بعض أوقاتها سوى المشاكل العائلية لأختها المقيمة إلى جوارها والتى تصر على إشراكها فيها من حين لآخر ، وقد تطورت هذه المشاكل فلم تعد تقتصر على شكوى الزوج من إهمال أختها له أو لنفسها وإنما امتدت لتشمل مشاكل أولادها التى كبرت معهم ولم تعد تنتهى فهذه البنت كُسرت ساقها ولابد من الإسراع بها إلى المستشفى ، وهذا الولَد مرض فى منتصف الليل بالزائدة الدودية ولابد من إجراء الجراحة العاجلة له على الفور ، وهذا الولد ضبطه أبوه وهو يدخن فى الحمام فضربه وهاج على زوجته وعلى الجميع وهذا الولد يهزل ويفقد وزنه بلا سبب مفهوم ولابد من مساعدتها لأختها فى استشارة طبيب نفسى ، وفى كل يوم لهم حكاية ورواية ولابد لها من المشاركة فيها حتى فكَّرت جديا فى الانتقال من مسكنها إلى مسكن آخر اقترحه عليها « صديقها » وعرض عليها المساهمة فى تكاليفه ! وهمَّت بأن تفعل ذلك بالفعل لولا أن ماتت أمها فجأة وافتقدت وجودها فى حياة الأسرة ، ولم يعد من اللائق

أن تهجر أختها هى الأخرى وترحل بعيدا عنها .

وهكذا مضت بها السنون وكل عام يضيف إلى نجاحها فى الهيئة رصيداً جديداً ، ويخصم فى نفس الوقت من شبابها وملاحتها ورشاقتها ، وبعد عشر سنوات أو أكثر من قصتها معه بدأت تتمنى أن يتزوجها ولو فى السر ، وعلى أن تظل فى مسكنها ويبقى هو فى حياته العائلية لكى تستطيع أن تقدمه لأخوتها وتسعد بوجوده المحدود فى حياتها ، وهو يعدها بتحقيق هذه الأمنية الغالية ويستمهلها حتى يأتى الوقت المناسب الذى يستطيع فيه الإقدام على ذلك إلى أن صحت ذات يوم على نبأ مروع زلزل كيانها ، لقد مات الرجل الوحيد الذى أحبته واستكانت إليه لما يقرب من عشرين سنة ، وخلَت حياتها منه ووجدت نفسها عاجزة عن حتى الصراخ والولولة عليه وتلقى العزاء فيه ، ولأيامٍ عديدة بعدها راحت تعيد قراءة نعيه فى الصحيفة ويخيَّل إليها كل مرة أنها ستجد اسمها فيه وتعجب لخلو النعى منه وقد كانت الحقيقة الكبرى فى حياة هذا الرجل .

وتجهمت الدنيا لها لفترة طويلة وساءت صحتها وحالتها العصبية كثيرا حتى نصحها رؤساؤها بالحصول على إجازة طويلة والسفر إلى أى مكان بعيد ، واستجابت للنصيحة راغمةً ورجعت من السفر إنسانةً مختلفةً يستقر القنوط فى أعماقها وواصلت حياتها بلا حماس ولا رغبة ، ويوما بعد يوم وجدت

نفسها تفقد رغبتها فى العمل ومتعتها السابقة فيه وتتجنب العودة إلى مكتبها فى المساء وتطول بها أوقات الوحدة فى المسكن الخالى الصامت وغير بعيد منها تضج شقة أختها بالصخب فى كل الأوقات فتتعجب لزحام الحياة فيها . وذات أصيل نهضت من نوم القيلولة القصير وارتدت ملابسها وغادرت مسكنها فى طريقها للعمل فسمعت من وراء باب مسكن أختها أصواتا متداخلة وضحكات صاخبة ، فتوقفت أمام المسكن قليلا ثم ضغطت على الجرس ، ففتح لها الباب أصغر الأبناء ورحب بها ونظرت فرأت أمامها ما لا يقل عن عشرة من البنات والشباب يتحلّقون حول تورته كبيرة ومعهم أختها وزوجها والجميع يضحكون ويصخبون وتساءلت عن المناسبة ، فأجابتها أختها مشيرةً إلى أكبر أبنائها وهى تغمز بعينها :

– شباب آخر زمن يا أختى .. عصام يحتفل بعيد ميلاده مع « الجو » بتاعه !

ثم أشارت إلى فتاة فى التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها تقف بجوار ابن شقيقتها وتبدو فى غاية السعادة والابتهاج .

وأسرعت بتقديم التهانى ، ورحّبت بفتاة ابن شقيقتها التى خمنّت أنها لابد أن تكون زميلةً له فى الكلية يعتزم خطبتها ، وشاركت الجميع مرحهم بعض الوقت ثم استأذنت فى الانصراف واعدة ابن شقيقتها بهدية كبيرة وواعدةً فتاته أيضا بهدية مماثلة .

وغادرت المسكن وركبت سيارتها وهى مضطربة وتسائل نفسها :

– لماذا تذهب إلى عملها فى المساء ومسئولياتها فيه لم تعد تستدعى ذلك الآن ؟ وهل لو وجدت « مكانا » آخر تتجه إليه كانت ستذهب حقا للعمل ؟ وانتهت من تساؤلها إلى أنها إنما تذهب للعمل فى المساء لأنها لا تجد ما تفعله بوقتها خلاله ولا تطيق مسكنها الخالى ووحدتها فيه ، ولا تطيق فى نفس الوقت الاندماج الكامل فى حياة أختها المشحونة دائما بالشواغل والاهتمامات .

فأما الليالى الطويلة فى الفراش البارد فلم يعد يدفئها شىء إلا حرارة الذكرى ، ذكرى الحب الذى استغرق زهرة العمر كلها وخلفها بعده كالزهرة التى جفت وغاض رحيقها) .

وأما حياتها التى طالما هنأت نفسها عليها وعلى جرأتها فى اختيارها فلقد باتت الان موضع شك فى سلامة هذا الاختيار وبعد أن كانت تضيق بحياة أختها العائلية الباهتة وجدت نفسها كل مساء تقريبا تجلس فى مسكنها وحيدةً تتابع التليفزيون بلا رغبة ، وتتطلع للتليفون الصامت عسى أن يتذكرها أحد مديرى العمل فيتصل بها للدردشة قليلاً فى أحوال الحياة ، وتترقب أن تسمع طرقا على الباب عسى أن يتذكرها بعض أشقائها أو بعض أبنائهم أو شقيقتها التى تبدو الآن وكأن كل شواغل الحياة تشغلها عنها ، فهى كل يوم فى شأن وإذا عاتبتها لأنها

لم تطرق عليها بابها لعدة أيام متتالية راحت تعتذر إليها بمشاغل الأولاد ، أو بغيابها فى رحلة مع زوجها وأبنائها لعدة أيام فى الإسماعيلية أو الفيوم ، وبأى سبب آخر ، وقد لاحظت على شقيقتها أنها لا تشكو الآن من زوجها ولا تشكو من سجنها الطويل فى البيت وإنما تبدو راضيةً عن كل شىء فى حياتها ، ولا تُخفى سعادتها بزوجها وأبنائها بالرغم من ضعف امكانياتها المادية بالمقارنة بدخل أختها الكبير ، ثم مرضت ذات يوم فلم تذهب للعمل ولم تغادر مسكنها وقضت الوقت كله وحيدةً تراودها نفسها على أن تتصل بشقيقتها لكى تدعوها لقضاء اليوم معها ومؤانسة وحدتها ، وتتردد فى تنفيذ هذه الرغبة « مشفقة » على نفسها من أن تكون ضعيفة إلى هذا الحد وهى التى اختارت من البداية أن تكون « امرأة مستقلة » لا تحتاج لأحد حتى ولو كان شقيقتها ، وعند الأصيل بلغ بها الضيق منتهاه فاتصلت بشقيقتها داعيةً إياها للحضور إليها ولمرضها .

وهرولت إليها الأخت على الفور ومعها زوجها وكل أبنائها ، وضجت الشقة الصامتة على الفور بالحركة والحياة وعرض زوج الشقيقة إحضار طبيب يقيم فى الجوار ، فاعتذرت له بعدم الحاجة إلى ذلك وتبارى الأبوان والأبناء فى تقديم الاقتراحات لإخراجها من وحدتها وعزلتها وحياتها الخاوية .

– لماذا لا تتناولين الغداء معنا كل يوم ياطنط بدلا من تناوله وحدك هنا ؟

– ولماذا لا تقضين المساء معنا فى شقتنا كل ليلة ؟ ولماذا لا ترافقيننا يوم الجمعة إلى النادى أو إلى رحلاتنا القصيرة من حين لآخر ؟

وراقبت حماسهم باهتمام ووجدت نفسها سعيدة باقتراحاتهم الطيِّبة لأول مرة فى حياتها ، وانقضى المساء فى مثل هذا الحديث وعرضت الأخت أن تقضى الليلة إلى جوارها وأيّد الزوج الاقتراح بحماس ، لكنها أكدت لهما أنه لا ضرورة لذلك ، وانصرف الجميع قرب منتصف الليل ودخلت فراشها راضيةً فتساءلت : كيف ضاقت من قبل بهؤلاء الأعزاء ؟ وكيف باعدت بينها وبينهم هربا من مشاكلهم وهم لا يضمرون لها إلا أشرف العواطف ؟

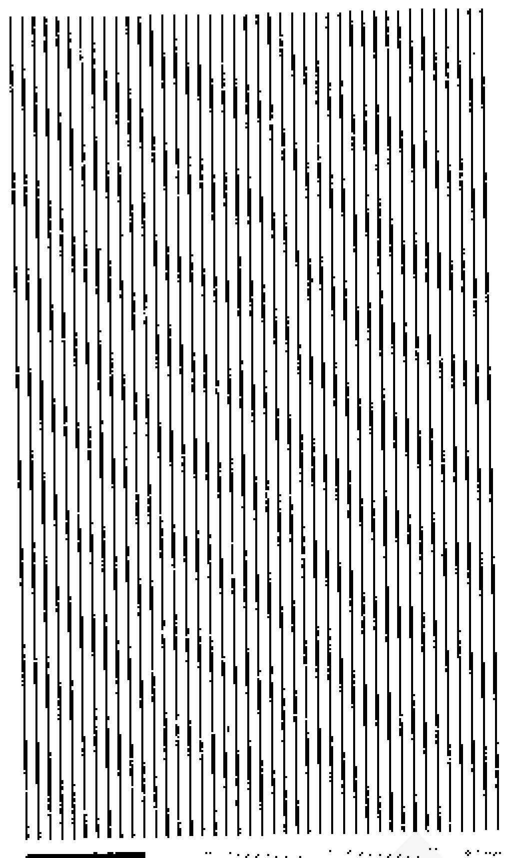
ثم كيف كرهت هذه الحياة من قبل بصخبها وضجيجها ومشاكلها مع أنها « الحياة » بكل ما تحمله الكلمة من معان وما عداها ليس سوى الوحدة والصمت والموت ، وصدَّق عزمها وهى تتهيأ للنوم على أن تندمج أكثر وأكثر فى حياة شقيقتها العائلية ولأن تقضى مع أسرتها بعض أوقاتها ، بل وعزمت كذلك على أن تشجِّع أشقاءها المتزوجين على زيارتها مع زوجاتهم وأبنائهم بعد الظهر بعد أن كان الجميع يتفادون ذلك لأنها تعمل فى المساء ولا وقت لديها لاستقبال الزوار وإضاعة الوقت معهم فيما كانت تسميه أحاديث النساء التافهة !

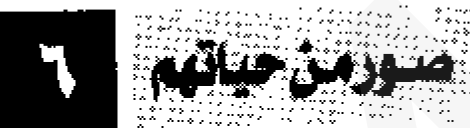
وذات صباح نهضت من نومها ودبيب جديد من النشاط

المفاجيء يدب إليها ، فارتدت ملابسها وشربت قهوتها السوداء التى اعتادت أن تكون أول ما تطعمه فى الصباح طوال السنوات الماضية ، ثم غادرت مسكنها وطرقت باب شقة أختها ففتحته لها وهى بملابس البيت وفى يدها « المنفضة » وابتسمت مرحبة بها ودعتها للدخول لكن شقيقتها قالت لها بسرعة وهى تمد إليها يدها بسلسلة صغيرة :

— هذا مفتاح شقتى أريد أن تحتفظى به باستمرار لكى تستطيعى الدخول إليها فى أى وقت بلا استئذان ، والآن فإنى سأنصرف إلى عملى لكنى سأرجع للغداء معكم فى الثالثة والنصف فلا تتناولوا طعامكم قبل ذلك وشكرا .

ثم لوحت لها بيدها ونزلت الدرج فراحت أختها ترقبها وهى تمضى إلى عملها .. وتتأمل الشعيرات البيضاء القليلة فى مؤخرة رأسها .. وهى تقاوم إحساسا خفيا « بالرثاء » لها ، ويهتف باطنها بالدعاء لها بأن يضع الله فى طريقها ذات يوم قريب من ينقذها من حياة الوحدة والخواء التى تعيشها الآن أو يعينها على وحدتها وجفاف حياتها « المستقلة » إن تعذَّر الإنقاذ !





الليالى البيضاء !

انصرف آخر الزوار مودعا صاحب البيت .. وشاكرا له كرم ضيافته ، فودعه الرجل حتى باب المسكن .. ووقف على بابه كعادته مع كل زواره ينتظر مجيء المصعد ليهبط بزائره فيحييه تحية الوداع .. ثم يغلق الباب - ويرجع إلى الداخل .

حمل المصعد آخر الزوار ، فتأوه الرجل وأطفأ نور الصالون، ثم فتح باب الثلاجة وأخرج زجاجة الماء وعبَّ منها حتى ارتوى وأعادها إلى موضعها ودخل غرفة النوم .

استلقى فى فراشه ، وضغط على زر « الريموت كونترول ».. فتوالت أمامه المشاهد والحكايات .. وكلما شعر بانعدام التواصل بينه وبين ما يرى حوّل الزر إلى قناة أخرى ، وشعر بامتنان عجيب لمن أشار عليه بتركيب الدش فخفف عنه الكثير من معاناته مع الوحدة والأرق فى فراشه الخالى كل ليلة .

استقر مؤشر «الريموت» على قناة تعرض فيلما أجنبيا فى هذا الوقت المتأخر من الليل .. فاستنامت إليه مشاعره .. واستعد للاستغراق فى أحداثه كعادته كل ليلة .

....

ليل الأعزب الوحيد طويل وموحش .. فشكرا لمن اخترع هذا الجهاز العجيب ووفر به الصحبة لمن لا صاحب له ، ومرات كثيرة تساءل فيما يشبه الجزع : ترى كيف كان يمكن أن يحتمل لياليه الموحشة هذه لو كان اختراع هذا الجهاز العجيب قد تأخر قليلا عن موعده !

وكيف كانت تمضى أمسياته لو لم يكن أصدقاء العمر القدامى يحرصون على زيارته كل مساء تقريبا ، فيخففوا عنه جفاف حياته !

أما النهار فأمره هيِّن .. وفى شواغل العمل رغم قلَّتها ما يقطع به أوقاته ، وفى صحبة الزملاء ما يخرجه من حين لآخر عن صمته ووحدته .. وحين أبلغه رئيسه منذ سنوات بقرار ترقيته مستشارا له وتخصيص غرفة مكتب مستقلة له فى الدور المخصص لمدير العمل تراوح بين الفرح بالترقية .. والجزع من الانفراد بنفسه فى غرفة مستقلة بعيدا عن الزملاء الذين امتزجت بهم وبشواغلهم حياته ، وأحس المدير باضطرابه فسأله مستنكرا:

– فيم تفكر .. ألست سعيدا بالترقية ؟!

فارتبك الرجل ثم أجابه فى تردد : بلى .. وأشكرك عليها كثيرا .. لكن ألا أستطيع أن أقوم بعملى الجديد .. وأنا فى مكتبى القديم بين زملائى ؟

ونطقت ملامح وجه الرئيس بالتعجب والاستفهام ، فلم يجد

بدا من أن يصارحه بأنه وحيد تماما فى الحياة ويجد بعض سلواه فى مشاركة زملاء العمل شواغلهم واهتماماتهم بل وحتى خلافاتهم وهذرهم ، ويخشى لو انفرد بنفسه فى حجرة بعيدة عن زملائه القدامى أن تطول أوقات وحدته فيها وتزداد حياته جفافا .

لكن الرئيس هوّن عليه هواجسه .. ووعده بأن يشغل كل أوقاته بالعمل فلا يجد متسعا للفراغ أو الوحدة .

واستقلّ بغرفة جديدة تفصلها عن زملاء العمل القدامى ثلاثة أدوار كاملة فراوده إحساس غريب بالنفى والهجرة ، ولم يخفف ابتهاج الزملاء بترقيته ووعدهم له بالزيارة اليومية شيئا من وحدته .. وقال لنفسه حين وجد أنه يتقضى ساعات كل يوم منفردا بنفسه داخل جدران مكتبه « حكم جرى للقضاء فينا .. » إن يكابد إحساس النفى والوحدة فى الليل وفى النهار .

وقبل سنوات أخرى بدأت معاناته مع هذا الإحساس المرير حين صدر القرار الآخر « بنفيه » من كل حياته السابقة بغير ذنب جناه ، وبعد ١٠ سنوات من العشرة التى خالها سعيدة وناجحة قالت له من كانت شريكة حياته : لا أمل فى حياتنا معا .. فبذكرى الأيام الطيبة التى جمعت بيننا من قبل أستحلفك ألا تعارض فى الطلاق وأن تدعنى لنفسى فى هدوء وترحل عن البيت !

فعبثا حاول أن يثنيها عن هذا القرار العجيب .. وعبثا حاول

الاستعانة عليها بأمها وأبيها لإثنائها عنه أو حتى شرح أسبابه .

والتمس لها العذر فى تغيرها معه بما شهدته حياتها معه من آلام لايدّ له فيها .

كوفاة وليدهما الأول بعد شهور من ولادته .. وكإجهاضها مرتين من بعده .. كانت الأخيرة منهما قبل أسابيع من هذا القرار الأليم ، وعرض أن يهجر البيت لفترة إلى أن تسترد إقبالها على الحياة وتتجاوز المحنة ، والحّ على أهلها فى إقناعها بالذهاب إلى الطبيب النفسى لعله يعينها على استعادة إتزانها وحسن تقديرها السابق للأمور ، فلم يُجد كل ذلك معها شيئا ويوماً سألها دامعا أمام أمها : فى أى شىء أسأت إليك .. حتى تقضى علىّ بالحرمان منك !

فبكت الأم .. ورق قلبها له .. أما هى فلم ترق ولم تلن وقالت له فى هدوء أنها لم تنكر عليه شيئا طوال سنوات عشرتهما ، لكنها تشعر بأن حياتها معه قد انتهت عند هذا الحد ، ولا أمل فى إحيائها من جديد .. ورجته ألا يعقد الأمور أكثر مما هى عليه الآن،بتمسكه برفض الطلاق .. فلم يجد مفرا فى النهاية من الاستجابة لرغبتها القاتلة .. وتنازل لها عن الشقة التى اشتراها استجابة لرغبتها فى نفس العمارة التى يقيم بها أبواها لكى تكون قريبة منهما ، وعوّضه الأب عن مسكنه السابق بمسكن بديل فى حى بعيد إمعانا فى نفيه عن حياته الماضية وتمت إجراءات الانفصال فى هدوء ، وقال له الأب وهو يودعه ، أنه

يأمل ألا تنقطع صلته به وبأسرته بانفصاله عن ابنته ، فقد كان نعم الابن له .. لكن ماذا يستطيع أن يفعل فى هذه الرغبة الجنونية التى تسلطت على ابنته .. ولم يفلح أحد فى اثنائها عنها !

وفى هذا المسكن المعلق فى الدور الثالث والعشرين من عمارة حديثة فى مدينة نصر تعمق إحساسه بالنفى عن سطح الأرض .. ولولا أصدقاء العمر القدامى .. وهذه السيدة العجوز التى قامت على شئون بيته وهو متزوج ووفت له بعد انفصاله عن زوجته فحرصت على زيارته مرتين فى الأسبوع لتشرف على بيته الجديد ، لشعر بالانفصال التام عن دنيا الأحياء .

وعن طريق هذه السيدة ظل الخيط متصلا بطريقة غير مباشرة بينه وبين زوجته السابقة مديحة .. فعرف عنها أنها أغلقت عشها القديم ورجعت للاقامة بين أبويها ، وعرف منها بعد فترة قصيرة .. أنها قد قطعت أجازتها الطويلة من العمل ورجعت إليه .

ومرارا راح يسألها عن أحوالها ، ويترقب منها كلمة تشى باهتمامها بأمره أو استعدادها للعودة إليه ، فلا يجد لديها سوى الإجابة التى لا تطمئن القلب الكسير .. وعلى استحياء سألها ذات مرة : ألا تسألك مديحة عنى ؟

فأجابته المرأة العجوز فى إشفاق بأنها قد تسألها من حين لآخر عن أحواله .. فتجيبها أنه يعانى الوحدة ودائم السؤال

عنها.. ثم تسألها ألا من أمل فى العودة .. فتسكت مديحة ولا تجيب !

وتطورت الأحداث بعد ذلك وتلاحقت ولاحظ تجنب المرأة الإشارة إلى زوجته السابقة أو الحديث عنها لو لفترة طويلة رغم محاولاته الدائمة لاستدراجها إليه . .وبعد فترة من الصمت المتعمد .. أجابته على سؤاله عنها فى حدّه :

– اهتم بنفسك ولا تسلْ عن أحد .. وتزوج فأنت رجل طيب وتتمناك أى سيدة !

وخفق قلبه بشدة حين سمع منها ذلك .. وألح عليها أن تفسر له غوامض حديثها وشعر بالأرض تميد تحت قدميه ، وهى تنهى إليه خبر زواج مديحة من قريب لها كان مهاجرا للخارج لخمسة عشر عاما ورجع من هجرته مؤخرا واستقر فى بلده .

وشهده المسكن الخالى ذبيحا يتعثر فى دماء حسرته .. وأحزانه .. وإحساسه الغامض بالاستخزاء والخجل .

وعرف من جديد الليالى البيضاء التى لا يغمض له فيها جفن.. ويبدو فى صباحها التالى عليلا مريضا لا يقوى على الحركة .. وتساءل فى حسرته صامتا : ترى هل كانت لعودة هذا القريب من الخارج شأن فى قرارها المفاجىء بالانفصال عنه ، وترى هل فاته إدراك شىء كان ينبغى له أن يدركه فى حينه؟

وبعد عذاب طويل استعان عليه باستشارة الطبيب .. والأقراص المنومة .. مال لتبرئة مديحة من أى شبهة للغدر به .. واطمأن للتفسير الذى قدمته له أمها خلال أحاديث الطلاق، من أنها مضطربة نفسيا وعصبيا بعد فقد وليدها وإجهاضها مرتين وتشعر بأنها تظلمه معها بانصرافها عنه .. وعجزها عن العطاء النفسى له ومجاراته فى أحلامه وآماله فى الإنجاب مرة أخرى .

وفى إحدى لياليه القاسية .. نهض من نومه مذعورا مكفهر الوجه .. وحاول استعادة الحلم المزعج الذى أفزعه .. فلم يتذكر منه سوى رؤى غامضة لتورتة زفاف كبيرة صنعت على هيئة جسمه وملامحه ، ومديحة وقريبها العائديمسكان بسكين كبيرة ويقطعانها بها .. فيغرسانها من حيث لا يدريان فى رقبته .. وصدره !

وأسر بهمومه وأحزانه لأقرب الأصدقاء إليه ، فقال له الصديق فى عطف : ولماذا تبرىء مديحة من كل ظن ؟ ولماذا لا تتصور أنها كانت تحب قريبها هذا قبل هجرته .. وكانت تنتظره فلما تكث بوعده لها أو عجز عن الارتباط بها وهاجر ، يئست من الحب .. وقبلت بك زوجا ، وحين رجع إلى بلده قادرا على الزواج ومستعدا له ، رأت أنه لم يعد يربطها بك شىء حيث لا طفل يجمع بينكما ولا أولاد ، فاستيقظ الحب القديم ، فى قلبها وأرادت استكمال فصول القصة الناقصة .. وأعانها على

ذلك ثقتها فى أنك لن تنازعها فى مسألة الطلاق لأنك أحببتها بصدق ، أما هى ، فلقد كنت أنت نفسك تشكو لى أحيانا من أنها تحسن عشرتك لكنك تفتقد فيها الدفء العاطفى الذى يكافىء حبك العارم لها .

واختتم الصديق حديثه إليه بنصيحته التقليدية له بأن يواجه الواقع ويتحمل الحقيقة .. ويبدأ حياة جديدة مع أخرى فهو لم يبلغ الخامسة والأربعين بعد .. وكثيرات يرحبن به ويرين فيه أملاً لهن .

واستعاد حديث الصديق بعد مغادرته وفكر فيه طويلا ، ووجد عقله يميل إلى التسليم به . لكن ما بال القلب الخائن يرفض أن يدين من آلمته بأى شبهة ؟ ولماذا يراوده الأمل العاجز فيها .. حتى بعد أن تزوجت ووشَت حياتها بالاستقرار والاستمرار !

لقد حاول مرارا أن يقنع نفسه بما يقوله له الأصدقاء المخلصون .. لكن كيف يقتنع القلب الحزين بما يؤلمه الإقتناع به ؟

لقد بقى معلقا بالأمل العاجز فى أن يسترد حياته الماضية بطريقة غامضة كأن كل ما جرى كان حلما مزعجا وصحا منه ، إلى أن وشت ملامح المرأة العجوز ذات يوم بشىء ترغب فى أن تقوله له وتقاوم رغبتهافى ذلك .. فألح عليها بالحديث فإذا بها تنهى إليه خبراً ، وأد آخر أمل له فى حياته الماضية ، فلقد

أنجبت مديحة من زوجها الجديد وجاء الطفل صحيحا سليما .. وترسخت روابطها بشريكها بما لايدع له بارقة أمل فى استعادتها ذات يوم ..

فهنيئا للسعداء سعادتهم .. وتعسا للمحسورين بحسرتهم ولولا الحبوب المنومة لاستحالت الحياة إلى جحيم متصل .. ويوماً خضع لمشورة الأهل والأصدقاء .. والتقى بترتيب مخطط بسيدة مطلقة فى الخامسة والثلاثين من عمرها فى بيت أحد أقاربه وجرى الحديث المعتاد فى مثل هذه المناسبة ورجع من اللقاء حائرا لا يستطيع الحكم على مدى استعداده النفسى للقبول بها .. ثم تكرر اللقاء عدة مرات وانتهى بالخطبة فإذا بها لا تطول أكثر من بضعة أسابيع ثم يجىء الرفض من جانب السيدة وليس منه ، ويكون سببها المعلن لذلك هو أنها لم تشعر باستعداده النفسى للقبول بها .. وانه يبدو لها رغم رقته وأدبه كصندوق مغلق يتعذر عليها فتحه !

وبعد فترة نقاهة من هذه التجربة .. كرر القصة مع أخرى ، فلم تطل فصولها أيضا عن بضعه شهور وإن كانت قد شهدت محاولة أكثر جدِّية من جانبه لإنجاحها ، ثم كان الفشل فى النهاية هو مصيرها ، وقالت السيدة حين سئلت عن ذلك أنه كان يحدثها خلال لقاءاته معها عن زوجته السابقة أكثر مما يحدثها عن نفسه !

فيئس من تكرار المحاولة من جديد وسلم بحاجته إلى فترة

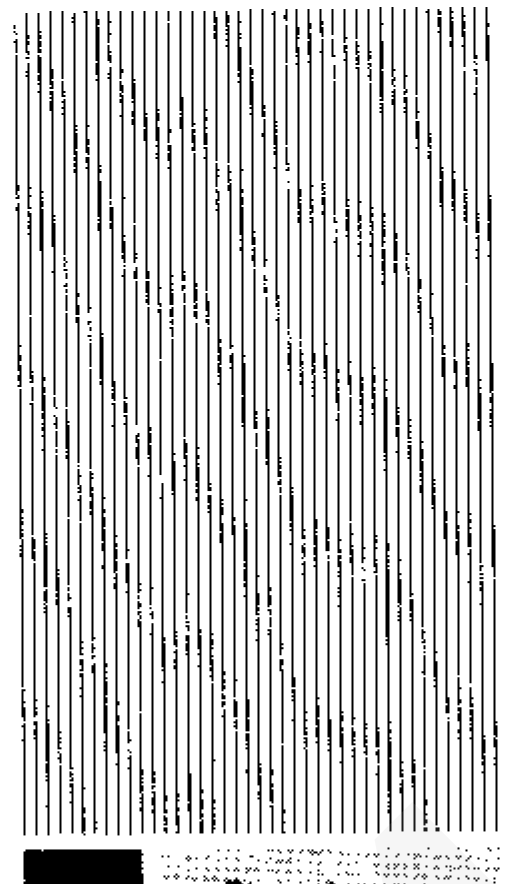
أخرى يستعيد خلالها توازنه قبل أن يقدم على تجربة جديدة .

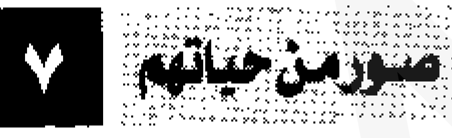
وفى إحدى زيارات الأصدقاء قال له أكبرهم سنا ، أن الكأس الممتلئة لا تقبل المزيد من الماء .. وإلا فاض عن حافتها وأنه يلزم لكى يملأها مرة أخرى أن يفرغها أولا من محتواها ثم يستقبل فيها الجديد .

وأبدى إقتناعه بوجاهة رأيه ، ووعد بأن يبذل جهدا صادقا لإفراغ كأسه مما يشغل فراغها .. وحين ودعه الأصدقاء قرب منتصف الليل وحيّاهم على باب المسكن كعادته كل ليلة رجع إلى فراشه ، وتشاغل كعادته بتقليب قنوات التليفزيون .. وتهيأ للإستغراق فى متابعة فيلم عاطفى بدا له واعدا ، بتسلية جميلة فتردد السؤال الحائر فى أعماقه مرة أخرى :

– متى تُفرغ الكأس الممتلئة ما بها وتصبح صالحة لاستقبال هذا الجديد الموعود ؟

ثم استغرق فى متابعة أحداث الفيلم الناعمة فتشاغل بها عن خواطره وأفكاره . .إلى حين ، وتجدد الأمل لديه فى أن يحظى آخر الأمر ببضع ساعات من النوم الهادىء .. الذى يستعصى عليه غالبا كلما تجدد الحديث بينه وبين أصدقائه عن مشكلته !







دق جرس البـاب وهى منشغلة بارتداء ملابســها ووضع بعض لمسات المـاكياج السريعة على وجهـها الجميل فـضاقـت بهذا الطـارق الذى سيـعطلهـا عن اللحـاق بموعدها القـريب ، وتوجهت للباب وفتحـته فى حذر فإذا بشقيقتها الكبرى التى لم ترها منذ بضعة شهور تقف أمامها مبتسمة فى تودد .. ورجاء !

يا إلهى ماذا تريد شـقيقـتها منهـا الآن ، وهى التى لا تحفل بروابطها العـائلية ولا تكلف نفسـها عناء السؤال عن شـقيقتـها الوحيدة حتى ولو بالتليفون !

لقد جاءت إليها تطلب منها أن تستـضيف طفليها لديها لبضع ساعات « فقط » هذا المساء لأنهـا مرتبطة بموعد هام، ولا تجد من يرعى طفليـها خـلال غـيابهـا عنهـما وعلى الفـور اعتـذرت الشقـيقـة الصغرى عن هذه المـهمـة لأنها مرتبـطة هى الأخرى بموعد بعد دقائق ولا تملك التخلف عنه، لكن هيهات أن تستسلم الشقيقـة الكبرى الجامحة أو تقبل الهـزيمة، فهى أشد اضطرارا منها للحاق بموعدها وأختهـا الصغرى على حد تعبيرها هى كل «أسرتها»، فإلى من تلجأ سواها لكى ترعى عنها طفليها فى مثل

هذه الظروف الطارئة؟، ولم تقتنع الشقيقة الصغرى بمنطق أختها، فلقد عرفت عنها دائما أنها لا تتبع إلا أهواءها ولا تتذكر «روابطها العائلية» إلا حين تكون مبررا لمطالبتها بتضحية من أجلها أما ما تفرضه عليها نفس هذه الروابط من واجبات تجاه شقيقتها الوحيدة فلا حديث عنها ولا إشارة ؟

وكعادتها معها طوال السنوات الماضية وضعتها مرة أخرى أمام الأمر الواقع، وجاءت بطفليها معها فى سيارتها وتركتهما فيها أمام بيت الشقيقة ثم ألحت عليها فى رعايتهما هذه المرة «فقط» وأسرعت بالفرار!

ووجدت الشقيقة نفسها فى مواجهة طفلين صغيرين ينظران إليها من داخل السيارة فى خوف.. ورجاء، ولم تجد مفرا من اصطحابهما معها إلى موعدها وهى حانقة !

ورجعت من موعدها للبيت مع الطفلين وانتظرت فى صبر نافد عودة شقيقتها لاستردادهما، فإذا بجرس التليفون يرن، وصوت الشقيقة يأتى إليها من مدينة أخرى على بعد مئات الكيلومترات يبلغها أنها لن تستطيع العودة قبل بضعة أيام أخرى، وترجوها العناية بطفليها إلى حين عوتها من السفر !

وأسرعت باغلاق التليفون قبل أن تنفجر فيها أختها صاخبة ولاعنة !

يا إله السموات.. ماذا تفعل فى هذه المسئولية الثقيلة التى لم ترغب أبدا فى تحملها ؟ إنها موظفة وتعيش وحيدة فى

مسكنها.. ولم تتزوج من قبل ولم تنجب ولا تجيد معاملة الأطفال ولا تصبر على عناء رعايتهم فماذا تصنع فى هذه الورطة ؟

راحت تلعن أختها الأنانية الجامحة، فى سرها وتبحث عن حل لهذه «الكارثة»، وجاءها جارها الأرمل الذى كان زوجا لأقرب صديقاتها واعتاد أن يطرق بابها من حين لآخر ليطمئن على أحوالها، فاشركته معها فى «مصيبتها» وسألته ماذا تفعل ؟

ونظر الرجل فى عطف إلى الطفلين الحائرين، وقال لها إن رعايتهما لبضعة أيام ليست أمرا شديد العناء كما تتصور، وإنه سوف يساعدها فى ذلك لأنه كثيرا ما تمنى هو وزوجته الراحلة أن ينجبا طفلا مثلهما لكن الأقدار لم تسعدهما بذلك.

وحاول الرجل الاقتراب من الطفلين فوجدهما واجمين ويشعران بضيق خالتهما الصامت بهما.

ووجد الطفل الأكبر أكثر استشعارا للجو المحيط به من الطفلة الصغيرة التى تحتمى به ولا تستشعر الأمان إلا فى وجوده.

وانقضت الليلة الأولى لهما فى بيت خالتهما والجميع فى أسوأ حال !

ولم يتحسن الوضع كثيرا فى اليومين التاليين فللأطفال إلى جانب عناء خدمتهم ورعايتهم، ضجيجهم وعبثهم أيضا اللذان قد يفسدان نظام بيت لم يألف وجود الأطفال فيه، والخالة تتراوح

دائما بين الضيق بهم وبين الاشفاق عليهم والسخط على شقيقتها الغائبة.

ولقد انقضت الأيام الثلاثة التى حددتها أختها لغيابها عن المدينة فى عناء شديد وهى تتلهف على عودة هذه الأم المستهترة لاسترداد طفليها فإذا بها لا ترجع فى الموعد المنتظر، وإنما تتصل بها ولكن لكى تبلغها هذه المرة فى جرأة غريبة أنها لن تعود إلى المدينة فى المدى القريب ! وأنها قد أحبت رجلا تريد ألا تضيع فرصتها فى السعادة معه هذه المرة ولو كان «القربان» الذى تقدمه لذلك هو التخلى عن مسئولية طفليها لأختها ! وفقدت الأخت الصغرى ما تبقى من رشدها، وحاولت بكل الطرق اقناع شقيقتها الجامحة بالعدول عن هذه المغامرة الجديدة وتحمل مسئوليتها عن طفليها، وفشلت فى ذلك وهى تكاد تنفجر بالغيظ والكَمد، وتساءلت متعجبة من استهتار شقيقتها حتى لو قبلت بهذه المسئولية التى لا ترغبها، فماذا عن ملابسهما ومتعلقاتهما؟ وماذا عن سيارة هذه الشقيقة الغادرة التى تركتها مغلقة أمام مسكنها؟ فإذا بالطفل الصغير يرفع إليها يده بمفاتيح السيارة التى تركتها أمه معه منذ البداية وأوصته ألا يظهرها إلا بعد مغادرتها للمكان، وإذا بالخالة تكتشف أن ملابس الطفلين موجودة فى حقيبة السيارة منذ اليوم الأول، وأن أمهما قد خططت لترك طفليها لها لكى تجرى وراء حبها الجديد بلا عوائق ولا مسئوليات!

وفقدت الخالة كل أمل فى أن تسترد الأم طفليها منها فى وقت قريب واستسلمت لليأس والقنوط.

وحاول الجار العطوف أن يشد من أزرها ويلفت نظرها إلى أن وجود الطفلين فى رعايتها ليس « شرا خالصا» كما تتصور، وإنما سوف يجعلان لحياتها الخالية معنى جديدا، لكن هيهات أن تقتنع بالوجه الآخر لهذه المسئولية العائلية وهى من أجبرت على تحملها بغير أن تختارها لنفسها، وبعد عناء شديد راحت تحاول أن تتكيف مع أوضاعها الجديدة وتقنع نفسها بقبول الطفلين فى حياتها على أمل ألا تطول غيبة أمهما عنهما كثيرا.

واكتشفت بعد بعض المفارقات والتجارب أن رعاية طفلين ليست أبدا أمرا سهلا على من لم تجربها من قبل، فلقد تغيرت كل حياتها بعد «تورطها» فى هذه المسئولية الجديدة، فبعد أن كانت تنهض من نومها قبل موعد خروجها إلى عملها بدقائق معدودة، وجدت نفسها مضطرة للصحو مبكرا لاعداد الافطار لهما ومساعدتهما فى الاغتسال وارتداء ملابسهما، ثم اصطحابهما إلى مدرستهما قبل الذهاب إلى عملها.

وبعد أن كانت تخرج من عملها، فتذهب إلى حيث تشاء بلا ارتباطات ولا التزامات عائلية، وجدت نفسها تسابق الزمن بعد خروجها من العمل لكى تذهب إلى مدرسة الطفلين وتُعيدهما للبيت، وبعد أن كانت تمضى يوم الأجازة شبه نائمة معظم النهار تحاول تعويض إجهاد أيام الأسبوع، وجدت نفسها

مضطرة بالحاح من جارها الطبيب، إلى التخلى عن كسلها فى العطلة الأسبوعية واصطحاب الطفلين إلى الحديقة ذات مرة أو لتناول الغداء فى مطعم عام فى مرة أخرى، أو إلى مدينة الملاهى فى مرة ثالثة، أما غسل ملابسهما وإعداد طعامهما والاشراف على نظافتهما ومتابعة أدائهما لواجباتهما المدرسية، فلقد شغلت كل ما بقى من أوقاتها!

وشيئا فشيئا بدأت تشعر بشىء من الألفة تجاه هذين الطفلين البريئين وبدأت تحس أيضا بأنهما قد تخلَّصا من جمود مشاعرهما تجاهها الذى انطويا عليه فى البداية.

ثم فوجئت ذات مساء بالطفلة الصغرى مريضة ودرجة حرارتها ملتهبة وشعرت بانزعاج شديد، وخوف أشد! وأسرعت باستدعاء الطبيب الذى وصف لها الدواء ونصح خالتها بألا تسمح لها بمغادرة الفراش لعدة أيام، وأعطت الخالة ابنة اختها دواءها، واطمأنت لاستسلامها إلى النوم فأمرت الطفل بالعودة لفراشه وتوجهت إلى غرفة نومها فنامت نوما قلقا مضطربا وتسللت فى الصباح الباكر إلى غرفة الطفلين لتطمئن على الطفلة المريضة، فتوقفت دامعة أمام منظر مؤثر ! فلقد وجدت الطفل الذى أمرته بأن يرقد فى فراشه قد غادره بعد انسحابها من الغرفة ونام راكعا على الأرض بجوار فراش شقيقته لكى يظل ممسكا بيدها ويُشعرها بالأمان خلال نومها!

وشفيت الطفلة الصغرى من مرضها واستردت حيويتها ومرحها.

وتعرضت مشاعر الخالة «الأمومية» الجديدة لامتحان آخر كشف لها عن أبعاد جديدة فى نفسها، فلقد انفلت الصبى الصغير من يدها ذات يوم وهما فى الطريق منفعلا لغضب خالته منه فى شأن من شئون الأطفال العابرة، فكادت تدهمه سيارة مسرعة وسقط على الأرض مصابا ببعض الكدمات، وجن جنون الخالة وفقدت كل رزانتها ورباطة جأشها، وهجمت على قائد السيارة تريد أن تفترسه، وفى المستشفى أفاق الطفل من نومه أو غيبوبته فوجد خالته راكعة إلى جوار فراشه على ركبتيها وممسكة بيده كما فعل هو مع شقيقته حين مرضت فابتسم لخالته فى امتنان وطمأنها على سلامته !

وتوالت الأيام على الأسرة الجديدة تعمق كل يوم من روابطها وتنسج خيوط الألفة والمودة والاعتياد بين أفرادها.

وبدأ عام دراسى جديد فنقلت الخالة الطفلين إلى مدرسة مجاورة لمسكنها ، وأصبح على الطفلين أن يذهبا إليها كل صباح سيرا على الأقدام عبر بضعة شوارع ومفارق للطرق ، وودَّعتهما فى يومهما الأول بالمدرسة وهى تكرر على الشقيق الأكبر تعليماتها المشددة له بألا يدع يد أخته الصغيرة تفلت من قبضته طوال الطريق ، وألا يعبرا الشارع إلا من نقطة عبور المشاة ، وألا يفعلا ذلك إلا عندما تضىء الإشارة الخضراء الخ، والطفل يشير برأسه مبتسما علامة الفهم والوعد بالالتزام !

فلا تطمئن الخالة بالرغم من ذلك وتظل طوال الوقت فى

مسكنها تتحرك فيه جيئة وذهاباً فى قلق وترقب ثم يرن جرس الباب فتهرول إليه لـكى تستقبلهما مبتهجـة فإذا بها ترى أمامها أختها الهاربة واقفةً تنظر إليـها فى جمود وترقب وقبل أن تفتح الزائرة فمها بكلمة واحدة ، زأرت الأخت الصغرى فى وجهها :

– ماذا تريدين ؟

ولم تكن فى حاجة لأن تسألها هذا السؤال ، لقد فشلت قصة حبهـا الجديد واستكملت فصولهـا كالعادة فرجعت إلى مـدينتها خائبة « وتذكرت » أن لها طفلين قد غـابت عنهما لأكثر من عام وتريد الآن استردادهما !

وانفجر بركان الغضب فى صدر الشقيقة الصغرى وزمجرت صائحةً فى وجه شقيقتها :

– وأين كنت حـين تركتهـما فى السـيارة أمام بيت مـسكنى ولُذت بالفرار ؟

وأين كنت حين توسلت إليك ألا تهجريهما جرياً وراء أهوائك ومغامراتك ؟

وأين .. وأين .. وأين ؟

ولا جواب لدى الأخت العائدة سوى أنها قد جربت وفشلت ، وأخطأت لكنها تريد الآن اسـتـعادة طـفليهـا لأنهـا فى النهـاية أمهما.. وهما ابناها !

وتجمع سخط الدنيا كله فى أعـماق الأخت الصغرى وطردت

شقـيقتهـا مؤكدةً لهـا أنها لن تعيـد إليها طفليـها اللذين لم ترع حقوقهما عليها ، وقررت بعد مشاورات طويلة مع جارها الأرمل ومع الطفلين أيضـا أن « تحارب » بالوسائل القـانونية من أجل الحصول على حق حضانتهما بدلا من أمهما المستهترة، وأقامت بالفـعل دعـوى قـضائيـة لطلب حـضـانة الطفليـن لأنها أكـثـر استـشعارا للمسـئولية الإنسـانية عنهمـا من أمهمـا المستهـترة ولأنها تحتاج إليهما كما يحتاجان إليها، فلقد جعلا لحياتها معنى جديدا وأضافا إليها مبـاهج جديدة وشواغل نبيلة، فإذا كانت قد تكلَّفت بعض العناء فى رعايتهما، فحتى هموم رعايتهما أيضا لها بهجـتهـا ومتعـتهـا وهدفها الذى يسـتحق التـضحيـة من أجله، وشهـدت قاعة المـحكمة صراعـا مريرا بين الأختـين حول حق حضـانة هذين الطفلين، ودُعى الطفلان إلى الشـهادة، وسألهـما القاضى عمَّن يفضـلان أن يبقيا تحت رعايته فـأجابا واحدا بعد الآخر أنهمـا يريدان البقاء مع خالتهـما الشابة التى لم تنجبـهما من صلبهـا لأنها تحبهـما وترعاهمـا ولا تشعرهما بأنهـما عبء عليـها يعرقل فـرصهـا فى السعـادة كمـا تفعل أمـهمـا، ولأنها لا تنفجر فـيهما كلما واجـهت فشلا عاطفيـا جديدا ولا تنصرف عنهما تاركة إياهمـا للأقدار كما فعلت عدة مرات خـلال عمرهما القصير.

واختـتم الطفل شهـادته فى المحكمة بكلـمة معـبرة ومثـيرة للتأمل، فقـد قال إنه لا يكره أمه لأنها أمـه قبل كل شىء بل إنه على عكس ما قد تظن يحـبها ويشعر أنهـا تستحق العطف، لكنه

يحب خالته كذلك ويشعر معها بما لم تُشعره به أمه، وهو أنه «هبة» عظيمة من السماء لها، وليس عبئا عليها، ولهذا فهو يريد البقاء مع خالته مع عدم حرمانه من رؤية أمه أو الاتصال بها من حين لآخر!

ويحسم القاضى النزاع الغريب بأن يقضى لخالة الطفلين بحضانتهما مع حق أمهما فى زيارتهما فى مواعيد محددة، ويقول للأم التى أسالت شهادة طفليها دموع الندم فى عينيها، أنه يرى أن ذلك سيحقق مصلحة الطفلين أكثر لأن حقوق الأمومة لا تترتب بالميلاد فقط وإنما أيضا بالرعاية والحب وتحمل المسئولية عمن أنجبتهم وتغادر الأم قاعة المحكمة دامعة ومهزومة لكنها ولأول مرة فى حياتها لا تشعر بالمرارة تجاه شقيقتها أو طفليها اللذين خذلاها فى ساحة المحكمة، فلقد بدأت تفهم ما غاب عنها زمنا طويلا وتندم على أنها لم تدركه إلا بعد فوات الأوان!

وتخرج الخالة مع «طفليها» وجارها الطبيب سعداء مبتهجين يستعدون للاحتفال برأس السنة الجديدة!

وينظر الصبى الصغير لخالته خلال الطريق ثم يهمس إليها فى صوت خفيض : لماذا لا تتزوجين جارك الطبيب هذا لكى يصبح أبا لنا، وهو يحبنا ويحبك ونحن نحبه وأنت كذلك ؟

وتبتسم الخالة فى صمت وتأمل وهى ترقب فى حب «طفلها» الذى اكسبته ظروفه المؤلمة خبرة مبكرة ببعض شئون الحياة،

ويلح الصبى على خالته بالاجابة فتهز رأسها إليه باسمة وكأنها تقول له ولنفسها : ولم لا ؟

أو وكأنها تقول له : فلندع الأيام تختار لنا ما هو خير للجميع !

ثم تتشابك أيدى أفراد الأسرة الصغيرة السعيدة «وتحجل» الطفلة البريئة خلال سيرها تعبيرا عن ابتهاجها بالحياة وإطمئنانها لها!

وترقبها الخالة الشابة فى سعادة وهى تعجب من نفسها كيف اسودَّت الدنيا فى وجهها من قبل حين فرضت عليها رغما عنها مسئولية رعاية هذين الطفلين؟ وكيف غاب عنها فى ذلك الحين أن حياتها السابقة كامرأة وحيدة بلا أعباء ولا مسئوليات عائلية، ليست كما كانت تظن هى الحياة السعيدة المثلى، لأن من هموم الحياة والتزاماتها كذلك ما يُسعد الإنسان أن يتحمله لأنها هموم لذيذة ونبيلة وتثرى الحياة من حوله !


صور من حياتهم
٨


الراعى
الرئيسى !

فى مصعد الفندق بأحد الشـواطىء المصرية التقينا على غير سابق معرفـة، رجل فى الأربعين توحى ملامحه بالطيـبة.. ومـعه ثلاثة أطفـال صغـار وسيدة شـابة جـميلة فى وجـهها لمحـة من الغمـوض والاعتـداد بالنفس. نظر إلىّ الرجل متوددا ثم سألنى مـبتسما : هل أنت فـلان؟ أجبـتـه بالايجاب، فـتفـضل بالثناء وأشـار إلى السـيـدة التى ترافـقـه قـائلا: إنهـا تشـاركـه فى نفس الراى.. وابتـسمت السـيدة مُـحيـية ورددت التـحيـة شاكـرا، ثم توقف المصـعد فى الدور الـخامس وغادره الـرجل والسيـدة والأطفال وواصلت الرحلة وحيدا إلى الدور التاسع.

فى اليوم التـالى غادرت غرفتى إلـى حمام الفندق مصطحـبا معى كتـابا وبعض الصحف واستلقيت على «شـيزلونـج» مريح على حافة حمـام السباحة، واستغـرقت فى القراءة لبعض الوقت مستمـتعا بأشعة الشمس الذهبية وإحـساس الاجازة.. والفراغ.. فتذكـرت فجأة عبارة غـريبة جاءت على لسان «ياسـين» المغرم بالنساء فى رواية قصر الشوق لنجيب محفوظ يقول فيها لنفسه وهو يتأمل باشتهاء النساء العابرات فى الطريق :

– إن الحياة هى الفراغ السعيد !

وابتسمت باطنيا عند استرجاعى هذه العبارة وتأملتها للحظات وقلت لنفسى، إنه ما أجمل «الفراغ» حقا من كل شىء وما أجمل أن يملك الإنسان أوقاته فيقضيها كيفما يتراءى له وبغير أن تضطره التزامات العمل وأعباء الحياة إلى ما لا يحب، ولكن هل يسعد الإنسان حقا «بالفراغ» اللانهائى؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يشقى معظم الرجال ببلوغ سن الاحالة للمعاش وانتهاء تبعات العمل؟. ولماذا يشعرون بالتعاسة والضياع ويفتقدون كل ما اشتكوا منه من قبل ويسعون بكل الجهد للبحث عن عمل ينشغلون به بعد المعاش؟. نعم إن «الفراغ السعيد» هو حقا غاية الحياة المثلى ولكن ليس لكل الوقت أو إلى ما لا نهاية.. وإلا سئمت النفس كل شىء من جديد كما تسأم ملل التكرار ومسئوليات العمل من حين إلى آخر، ولا بأس بهذا «الفراغ» إذا كان هُدنة مؤقتة من أعباء العمل والحياة وليس إجازة مفتوحة بلا نهاية، لأن الإنسان إذا طال «فراغه» بغير أن ينشغل بأى شىء مفيد.. تداولته غالبا الهموم والأفكار السوداء وشكا الملل إلى حد الموت. أفقت من خواطرى على الرجل الذى التقيت به بالمصعد فى اليوم السابق وهو يقترب منى مبتسما ومعتذرا عن قطع «خلوتى» للحظات. فاعتدلتُ فى مجلسى ورحبت به، وتبادلنا كلمات المجاملة المعتادة وتأهبت لسماع ما يريد أن يحدثنى فيه. فإذا به يقول لى إنه يريد أن يستشيرنى فى أمر شخصى شديد الخصوصية لكنه سوف

يصارحنى به على ما فى ذلك من حرج له. لما يشعر به من «ألفة» تجاهى وثقة فى شخصى من كثرة ما قرأ لى، ثم روى متحرجا قصته فقال لى : إنه زوج وأب لطفلين ويعمل عملا مرموقا بإحدى الهيئات، وأنه قد ارتبط منذ «١٥عاما» بفتاة وتوثقت علاقته بها، لكن قصته معها لم تنته النهاية الطبيعية لها بالزواج.. وفرقت بينهما التقلبات العاطفية لهذه الفتاة، فتزوج بغيرها وتزوجت بغيره، لكن الصلة بينهما لم تنقطع رغم ذلك وإنما اتخذت شكل الصداقة القديمة.. والعلاقة العائلية بين الأسرتين، وبعد زواجها شهدت حياتها فترة قصيرة من الاستقرار ثم لم تلبث أن رجعت إلى طبيعتها المتقلبة فارتبطت بعلاقة خاصة مع أحد مديرى الهيئة التى تعمل بها، وتطورت العلاقة بينهما حتى كادت تهدم أسرة ذلك المدير، وأسرتها أيضا، ووجدت نفسها فى موقف عسير بعد أن علمت زوجة الرجل بوجودها فى حياة زوجها وبدأت تطاردها وتطالبها بالابتعاد عنه وتهددها بإبلاغ زوجها بخيانتها له.. فمادت الأرض تحت قدميها.. واتجهت بتلقائية إلى ذلك الصديق القديم الذى تعرف جيدا أنه على استعداد دائم لأن يعطيها من نفسه وطالبته بإنقاذها من ورطتها وهب الصديق كعادته لنجدتها.. وتتدخل بينها وبين زوجة الرجل الآخر وأقنعها بعدم تصعيد الأمور إلى الحد الذى لا يرجى معه أى إصلاح.. وتعهد لها بأن تنهى غريمتها علاقتها بزوجها، وركز جهده بعد ذلك على صديقته القديمة وراح يقنعها بالابتعاد عن هذا الرجل قبل أن

تدمر علاقتها به حياتها العائلية نهائيا ولا تحصد فى النهاية سوى الحسرة وراقبها بحزم لكيلا تستجيب لضعفها وتواصل لقاءاتها مع هذا الرجل، وحاصرها نفسيا وعائليا حتى برئت من ضعفها.. وقطعت علاقتها بالآخر بالفعل، وركزت اهتمامها على أطفالها وزوجها وهى الآن كما قال لى فى فترة النقاهة من هذه القصة المزعجة لكنه لا يعرف هل سترجع مرة أخرى إلى طبيعتها المتقلبة بعد حين أم ستكتفى أخيرا بزوجها وأسرتها و « صداقته » المخلصة لها ؟ ثم سألنى فى حياء : بماذا تفسر علاقتى بها وما هو توصيفها الصحيح؟ فأجبته باننى أريد قبل أن أجيبه على سؤاله أن أعرف منه بعض المعلومات الضرورية.. ثم قلت له :

– قصتها مع هذا المدير.. لم تكن القصة الأولى لها مع رجل آخر غير زوجها وغيرك.. أليس كذلك ؟

فأجاب فى تسليم : نعم.

فقلت له : ولم تكن كذلك قصتها الوحيدة مع غيرك قبل الزواج؟

فأجاب مستسلما : نعم.

فقلت له : وفى كل مرة كانت تبتعد عنك وتندمج فى قصتها الجديدة إلى أن تتعقد المشكلة وتواجه الخطر، فتصرخ طالبة مساعدتك وتجدك مستعدا لذلك دائما، فتتدخل لإنقاذها من ورطتها الأخيرة وتبذل جهدا مخلصا لتصحيح الأوضاع

وتحجيم الخسائر، ثم تجد هى لديك بعد كل ذلك الاستعداد الدائم للصفح عما فعلت، فتقترب منك وتشعرك بأنك أقرب إنسان إليها فى الوجود وتسعد أنت بذلك كثيرا وتطمئن إليه ويستمر الحال هكذا لسنة أو أكثر ثم فجأة تتورط فى قصة جديدة مع شخص آخر وتبتعد عنك إلى أن تقع الواقعة ثم يتكرر السيناريو القديم بنفس تفاصيله ؟!

فنظر إلىّ ذاهلا وهو يقول : ومن أدراك بكل هذه التفاصيل.. وأنت لا تعرفنا؟

فأجبته بهدوء : قد أكون لا أعرفكما لكنى أعرف بالتأكيد هذه «الحال» من أحوال الحب الذى تتمثل فيها الآن علاقتك بهذه المرأة التى ألحظ نماذج متكررة منها فى بعض العلاقات من هذا النوع.. إنها علاقة «الراعى الرئيسى» بمن يحبها ويرعاها ويتفانى فى الاخلاص والعطاء لها فتستريح المرأة لإخلاصه واستعداده الدائم للاهتمام بها.. لكنها لا تجد فى كل ذلك ما يدفعها لأن تخلص لهذا الراعى أو تكتفى به من دون الرجال، وإنما تستكين إلى حب هذا الراعى لها وتستمتع بإخلاصه لها وتستفيد من عطائه النفسى والعاطفى وربما المادى أيضا ولا تريد أن تفقد كل ذلك، لكن هذه «الرغبة» لا تصل بها غالبا إلى حد الإخلاص له والاكتفاء به ويشجعها على ذلك أنه على استعداد دائم لأن يغفر لها ضعفها وخطاياها مع الآخرين، ويسعد بفترات العودة المؤقتة إليه.. ولا يمنعه شقاؤه

بمغامراتها المتقطعة من أن يرحب بعودتها إليه بعد كل مغامرة متمسكا بالأمل الضعيف فى أن تكون قد ملّت هذا العبث فتكتفى من الرجال بزوجها، ومن حب المغامرة بصداقة هذا الراعى الأمين الذى لا يطمع فى أن يقيم علاقة كاملة معها، وإنما يطمع فقط فى أن تقابل عطاءه العاطفى المجرد لها بما يستحقه من إخلاص !

ونظرت إلى محدثى بعد أن قلت له ذلك فرأيت وجهه يتضرج بالاحمرار وسألته مشفقا : هل آذيت مشاعرك بهذا التحليل ؟

فأجابنى بالنفى ثم سألنى : ما هو مفهوم «الكرامة» فى مثل حالتى هذه ؟

فغضضت البصر محرجا للحظات ثم أجبته بأنه لا مكان للكرامة فى مثل هذه العلاقة، لكنه يخفف من إحساسك بالحرج وجرح الكرامة فى هذه القصة انك تسلّم من البداية بأنها ليست لك وأنه لا أمل لك فيها ولا غاية سوى أن تستقيم فى حياتها الشخصية وتخلص لزوجها فتسعد أنت بالقرب منها فى إطار العلاقة العائلية البريئة بين الأسرتين.

فأطرق للحظات ثم سألنى : وما هو مصير هذه العلاقة فى تقديرك ؟ فصمتُ لبرهة ثم قلت له : إن مثل هذه العلاقة لا ينتظرها غالبا إلا ثلاثة احتمالات، الأول هو أن تواصل هذه السيدة عبثها ومغامراتها مع غيرك إلى ما لا نهاية لأن مناعتها العاطفية ضعيفة فتمضى علاقتك بها بين شد وجذب، وبين

هجر وعودة وصلح وخصام إلى آخر العمر، مع استمرارك فى العطاء الدائم لها والتسامح اللانهائى معها راضيا من علاقتك بها بالقليل الذى تهبه لك فى فترات الود والاخلاص المتقطع.. والثانى هو أن تمل هذه السيدة هذا العبث.. فقاطعنى متسائلا : والاحتمال الثالث :

فأجبته مبتسما : أن تملّ أنت عبث هذه السيدة ذات يوم، وترى أنها لا تستحق منك كل هذا الوفاء والعطاء، وأنها لم تقدرهما حقّ قدرهما.. ولم تقابلهما بما يستحقانه من وفاء وإخلاص لك فتنزاح غشاوة الحب الأعمى من عينيك وتراها فى صورتها الحقيقية.. امرأة عابثة لا تمل العبث.. ولا تريد أن تحرم نفسها فى الوقت نفسه من إخلاص هذا الراعى لها حتى ولو لم تكن تحبه، فتسقط الهالة التى أحطتها بها فى خيالك منذ عرفتها. وتزهدها وتبتعد عنها، وتكتشف أنه لم يعد لها فى قلبك ما يبرر لك كل هذا التسامح معها فتتغلب على ضعفك تجاهها وتشعر لأول مرة بقوتك الحقيقية معها وتتحرر من أسرها وسطوتها عليك، فتتعجب من نفسك حينذاك كيف قبلت منها كل ما قبلت وكيف تحملت منها كل هذه الجروح والاساءات بغير أن تثور لكرامتك وحبك وانسانيتك، فتهجرها غر نادم وتتوجه بمشاعرك لمن تشاركك حياتك وعاشت فى صمت وإخلاص إلى جوارك كل هذه السنوات، فسألنى : وأى الاحتمالات هو الأرجح؟

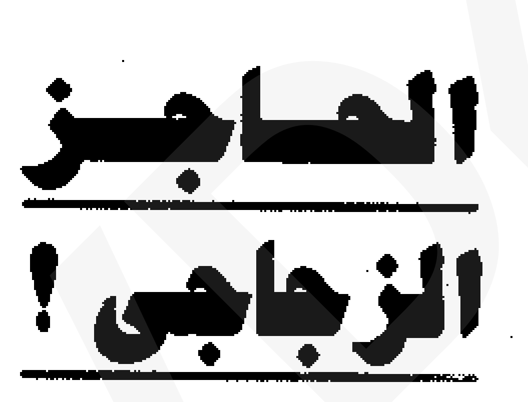
فأجابته بأنه وحده الذى يستطيع أن يحكم أيها أقرب للرجحان بناء على معرفته بنفسه وبشخصية هذه السيدة ومدى استعدادها للكف عن المغامرة والعبث، خاصة أننى لم أرها ولم أستطع أن أكوّن أى انطباع عنها، فإذا به يجيبنى : لكنك رأيتها بالفعل.. إنها السيدة التى كانت معى فى المصعد أمس، وهؤلاء الأطفال الثلاثة هم أطفالها، وزوجها معنا هنا فى هذا الفندق وقد كان وقتها قد سبقها إلى غرفتهم، كما أنها تجلس الآن بالقرب منك على حافة الحمام مع زوجها.. وتعرف أننى أستشيرك فى أمرها وأمرى معها، ثم أشار إلى شيزلونج قريب فرأيت سيدة المصعد المعتدة بنفسها مستلقية عليه باسترخاء وملل وبجوارها زوجها، ولاحظت لدهشتى شبابه ووسامته الملفتة للانتباه فازددت حيرة فى فهم شخصيتها ودوافعها لمثل هذا العبث، وراقبتها للحظات ثم استرددتُ بصرى، وقلت لمحدثى إن النظرة العابرة لا تكفى للحكم على الأشخاص لذلك فإننى أكرر له أنه وحده الذى يستطيع أن يتنبأ بمصير هذه العلاقة فى المستقبل لكنه إذا سألنى النصيحة فى أمره لما ترددت فى أن أقول له إنها علاقة خاطئة من البداية ولا مبرر لاستمرارها حتى الآن سوى ما يعانيه هو من ضعف شديد تجاه هذه المرأة، وإنه حين ينتصر على «الخائن الصغير» بين ضلوعه فسوف يضع كلمة النهاية بإرادته واختياره لهذه القصة غير المريحة وبغير انتظار لما يحمله له الغد من تطورات وأحداث !

وشكرنى الرجل بحرارة ثم ودعنى وانصرف عائدا إلى تلك

السيدة وزوجها ورجعت أنا إلى وحدتى وتأملاتى، وهاتف فى باطنى يتساءل : لماذا يقترب الهاموش الطائر دائما من مصدر الضوء فيلسعه ويحرقه.. مع أنه قد رأى آلافا غيره تواجه هذا المصير من قبل.

ولماذا يكرر الإنسان دائما أخطاءه.. وأخطاء الآخرين بغير أن يستفيد غالبا بدروس تجاربهم فى تفادى الخطر والنجاة من سوء المصير ؟

صور من حياتهم ٩



ماذا دَهاها خلال الشهور الأخيرة .. وماذا جرى لها ؟ ولماذا طالت فترات صمتها واستغراقها فى أفكارها واستسلامها لخواطرها الغريبة الجديدة هذه ؟

إن زوجها يشعر الآن أكثر من أى وقت مضى « بغيابها » عنه بالرغم من قربها المكانى منه .

وابنها الشاب ، وابنتها الجميلة يشعران أيضاً بشرودها عنهما أكثر الأوقات ، فماذا شهدت حياتها من تغيرات وتطورات ؟ ولماذا « تهاجر » بنفسها هذه الأيام بعيداً عن زوجها وابنيها وبيتها وحياتها المستقرة ؟

لقد تزوجت وهى فتاة صغيرة لا يتعدى عمرها السابعة عشرة ، وكانت يتيمة الأم ، وأبوها مريضاً يستشعر قرب الختام ، ويرغب فى الاطمئنان على مصير ابنته الوحيدة قبل أن يتركها لأقدارها ، فألحَّ عليها فى أن تقبل أول خاطب لها ، ووافقت هى عليه إرضاءً لأبيها وتزوجت ، واطمأن الأب إلى أن ابنته قد أصبحت فى عصمة رجل آخر فلم تمض شهور على زواجها حتى كان قد فارق الحياة ، ووجدت هى نفسها تعيش

مع زوج يكبرها بثمانى عشرة سنة ورث أعمالاً تجارية عن أبيه ونشأ وحيداً بين عدة شقيقات فـأدركت منذ الوهلة الأولى أنها تعاشر رجلاً مدللاً ألف تلبية كل رغباته بلا مقاومة ، واعتاد أن يميزّه من حوله ويغفروا له أخطاءه ، فتواءمت مع حياتها معه على هذا الأساس ورضيت بها .

هل أحبته ؟ لا تعرف !

هل كرهته ؟ لم تستطع !

فلقد عاملها باحترام ، وعاملته هى برقة طُبعت عليها ، إذن ما الذى وقف بينها وبينه كأنه حاجز زجاجى يحول دون أن تصل إلى قلبها إشعاعات حبه ؟ إنه ضعفه أمام النساء الذى اكتشفته منذ الشهور الأولى من الزواج ، فلقد كان من الرجال الذين لا يملكون أنفسهم أمام أية امرأة يتعاملون معها ، ولو رأى نملة تسير على الأرض لغازلها . وبكت كثيراً حين اكتشفت هذه الحقيقة ، وسألت نفسها عما ينقصها لكى يبحث عنه لدى الأخريات ، ونظرت فى المرآة فوجدت نفسها جميلة وجذابة ، وراجعت حياتها معه فوجدت نفسها زوجة طيبة يسعد بها أى رجل آخر ، ولم تصارحه بما عرفت عنه إلى أن عادت إلى بيتها ذات يوم من زيارة لأهلها ودخلت شقتها فجأة فشاهدته دون أن يراها يعانق فى الصالون إحدى قريباته ، ولم تثر عليه ولم تحوّل أزمتها الشخصية إلى فضيحة عائلية لكنها دخلت غرفة نومها واعتصمت بها حتى سمعت باب الشقة الخارجى ينغلق

بعد انصرافه مع قريبته ، فاستسلمت فى هذه اللحظة فقط لرغبة البكاء الشديدة التى قاومتها من قبل بصعوبة ، واتصلت بشقيقته الكبرى التى تحبها وتجد لديها حنان الأم الذى حرمت منه ، وشكت إليها همومها ! ولامتها الشقيقة على ضعفها معه وتهاونها فى حقوقها وطالبتها بأن تواجهه ، وبأن تشعره باحتمال أن يفقدها للأبد كزوجة إذا هو استمر فى عبثه واستهتاره إلى ما لا نهاية وقالت لها شقيقته أن الرجل إذا اطمأن نهائيا إلى أن زوجته قد قبلت بكل ضعفه وعبثه فإنه لا يرجع عنهما وإنما يتمادى فيهما إلى النهاية ، وأنت جميلة وصغيرة فلماذا لا تشعرينه بالخوف من أن يفقدك ذات يوم ؟ ولكنها لم تستطع أن تثير فى قلبه هذا الخوف « الصحى » المطلوب من احتمال فقدها ، فهى بطبيعتها إنسانة مسالمة وليست قادرة على الصراع والمجابهة ، وواصلت حياتها فى صمت ترى وتسمع وتكتم انفعالاتها ، وتبكى وحيدة فى غرفتها، ثم تخرج إليه كأنما لم تَر ولم تسمع شيئاً ، وبعد معاناة طويلة قررت إن تعتبر ابنها وابنتها هما « زوجها » و « أباها » اللذين حرمت منهما وأن تلتمس لديهما كل ما افتقدته فى زوجها . والتصقت بابنيها وشغلت نفسها بكل شئونهما واعتبرت أصدقاءهما أصدقاء لها ، وشاركتهما اهتماماتهما الصغيرة بشغف شديد ووجهت ينبوع الحب المكبوت فى قلبها إليهما ولاحظت فى نفس الوقت أن الحاجز الزجاجى بينها وبين زوجها قد ازداد سمكا بالرغم من استمرارها فى أداء كل

واجباتها الزوجية تجاهه ، ومضت السنوات وراقبت هى بتطلع خفى تقدم الأبناء فى العمر وتفتح مداركهم ونضج مشاعرهم ، وتعزّت عن وحدتها الوجدانية بطوفان الحب الذى أغدقه عليها ابنها وابنتها ، ثم رحلت عن الحياة شقيقة الزوج الطيبة التى كانت تعللها دائماً بأن يأتى اليوم الذى يرشُد فيه زوجها ويمل عبثه ، ففقدت برحيلها الأم التى تحنو عليها ، والصدر الذى تبكى عليه، وأصيبت بحالة اكتئاب شديدة لازمتها لعدة أسابيع .

ومضت الأيام فى طريقها المعهود وتقدم الزوج فى العمر ، وترك العبث الدائم بصماته على صورته فكثرت التجاعيد فى وجهه ، واحترق الشعر الأسود وانتشر فيه البياض ، وتهدلت الجفون من أثر السهر ، فبدا أكبر من عمره الحقيقى بكثير ، أما هى فلقد احتفظت بجمالها ، وصفاء روحها فبدت أصغر من عمرها الحقيقى بسنوات ، وبلغ « الابن » الثامنة عشرة و « الابنة » السابعة عشرة وتفتحت كزهرة جميلة تعيد سيرة أمها فى الجمال البكر الذى لم تكدره الاكدار ، وخرجت الزوجة مع زوجها ذات يوم فى زيارة لإحدى العائلات فالتقيا عندها بقريب للزوج هاجر من مصر منذ ١٥ عاماً وعاد لكى يبحث له عن زوجة مناسبة وشاهد الزوجة الجميلة بصحبة قريبه ، فتصور أنها ابنته التى سمع عنها من قبل ، وفاتح أهله برغبته فى خطبتها !

وأصبحت القصة نكتة عائلية يتندرون بها !

لكن النكتة الطريفة أيقظت فى قلب الزوجة مشاعرها القديمة، ونبّهت الزوج بعد فوات العمر إلى جمال الزوجة الذى تشاغل عنه طويلاً !

وتحقق الأمل القديم الذى طالما تعلقت هى بخيوطه وتصبرت به على حياتها ، وزهد الزوج أخيراً عبثه وخياناته ، وكف عن التطلع الدائم إلى الأخريات .

ورجع إلى زوجته يحاول اختراق الحاجز القائم بينهما وغزو قلبها المغلق على أسراره !

لكن ماذا دهاها وقد تحقق الأمل الذى تعلقت به طوال السنين ؟

لقد انهارت مقاومتها فجأة لكل شيء وأصبحت لا ترغب فى أى شيء ولا تريد شيئاً حتى ولو كان إخلاص زوجها لها ، ولا تطيق أن يلمسها ولا تستجيب له إلا كارهة .

ثم بدأت تستغرق فى نوبات طويلة من أحلام اليقظة ، وبدأت تحلم وهى الزوجة والأم لشاب وفتاة تسعد بهما أى أم أنها قد « تزوجت » فجأة من رجل تحبه ويحبها ، وتفتح عينيها كل صباح على قبلته ، وتودعه وهو خارج إلى عمله بقبله ، وتتصل به تليفونيا فى مكتبه بعد خروجه من البيت لتقول له إنها تحبه وتفتقده ، ويتصل بها هو بعد قليل ليسألها عما تفعل ويبثها شوقه إليها ويقبلها فى التليفون ، وتترقب عودته من عمله بلهفة وتستقبله عند باب المسكن بالأحضان !

وتستغرق فى هذا الحلم الجميل ساعات طويلة كل يوم فماذا جرى لها ؟ وماذا تعنى هذه الأحلام العجيبة التى تراودها وهى فى السادسة والثلاثين من عمرها ؟

هل ترغب حقاً فى الانفصال عن زوجها والارتباط برجل آخر؟ إنها تعرف جيداً أنها لن تفعل ذلك وأنها لا تستطيع أن تزلزل حياة ابنتها وابنها الشاب بمثل هذه الخطوة الخطيرة ، لكنها بالرغم من ذلك تستسلم لهذه الخواطر الجميلة وتستغرق فيها ساعات طويلة كل يوم .

وتعجب كيف يدغدغ هذا الحلم العجيب مشاعرها وكيف تحلق معه فوق السحاب ، ثم تفيق منه فتجد أمامها زوجها الذى تمنَّت حين تزوجته أن تحبه .

و « تضبط » نفسها لأول مرة فى حياتها وهى تنظر إليه بكراهية شديدة لا تعرف كيف تسللت إلى نفسها التى لم تعرف البغض من قبل ، وتجد نفسها أيضاً وهى الوديعة الحالمة تستسلم لنوبات مدمرة من الغضب والعصبية ، وتثور على زوجها وعلى ابنيها فكأنما تحمِّل زوجها مسئولية حرمانها من مثل هذا الحلم الجميل بوجوده فى الحياة ، وكأنما تحمل ابنيها مسئولية مكابدتها لهذه الحياة مع زوجها منذ البداية !

والجميع حائرون معها !

وابنها لا يفهم ما تعانيه لكى يحاول أن يخففه عنها بمرحه وحنانه لكنه يقول لها فى بعض الأحيان : ألا يكفيك ياماما أنك

قد قدمت للحياة شاباً مثلى وفتاة ممتازة كأختى ؟

فتخمد ثورتها على الفور ويسيل قلبها حباً وحناناً له ولأخته .

وزوجها أشد حيرة من ابنها معها ، وتكاد هى أن تلمح سؤالاً معذباً فى عينيه : هل هناك رجل آخر ؟

فلا تجيب على سؤاله ، ولا تطمئن باله إلى إخلاصها له ، ربما لكى يجرِّب بعض ما عانته هى من أحاسيس مريرة خلال احتراقها بعبثه وخياناته على مر السنين ، وربما لأن السؤال فى رأيها لا يستحق الإجابة عليه فهى تعرف جيدا انه ليس فى حياتها « رجل » سواه ولن يكون فى حياتها رجل آخر سوى فى هذه الأحلام الوردية ، ليس إخلاصاً لزوجها وإنما إخلاصاً لنفسها ومبادئها وأخلاقياتها ، وإخلاصاً لابنها الشاب وابنتها الفتاة الجميلة ، ولأن مثلها « لا تخون » ولو خانها زوجها ، إنها فقط تتعزى عن افتقاد الحب فى حياتها وعن حرمانها الطويل منه بهذه الأحلام السحرية العجيبة ، فماذا فى ذلك ؟

ولماذا لا يصبر عليها زوجها حتى ترتوى من هذه السعادة الوهمية وتهبط من سمائها إلى واقع حياتها مرة أخرى وترضى به ، كما ارتوى هو من قبل من عبثه وأهوائه ومغامراته ، ورجع إليها فى النهاية ؟

إنها مسألة وقت ، وصبر ، وزمن ليس إلا ، فلماذا لا يصبر عليها كما صبرت هى عليه كل هذه السنين ؟ ولماذا يتصور أنه

بعد أن جال جولته الطويلة فى دنيا النساء والخيانة ، سوف يرجع إلى شاطئه فيجدها ممدودة الذراعين إليه بكل الحب والعطاء وكأن شيئاً لم يكن ؟

إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك ولا هو فى مقدورها ولقد عجزت عن أن تقابل خيانته لها بمثلها أو أن تنتقم منه فى أرض الواقع « فانتقمت » منه فى دنيا الخيال ، واستسلمت لهذا الحلم الساحر العجيب ، وسوف تفيق منه طال الزمن أو قصر ، وترجع لنفسها وحياتها فماذا فى ذلك ؟

نعم .. ماذا فى ذلك ؟

رقم الإيداع ٩٨/١٤٧٠٣

الترقيم الدولى

I. S. B. N.

977 - 08 - 0787 - 7

هذا الكتاب

أروع القصص والروايات الخالدة هى التى يستوحيها الأدباء من الحياة .. قصص واقعية حوّلها الأدباء إلى قصص وروايات أدبية .. وهذا ما يتفق عليه جميع النقاد .. لأنه مهما كان خيال الأديب خصبا ومهما كانت مقدرته على التأليف .. إلا أن الحياة تفرز قصصا وروايات أروع وأبدع .

والقصص التى يحويها هذا الكتاب .. قصص رائعة وبديعة .. لأنها قصص مستوحاة من الحياة وأبدعها عبدالوهاب مطاوع الذى يعتبر من أقدر الكتاب على التعبير عن مشاعر وأحاسيس الشباب هذه الأيام .. من خلال الرسائل التى يبعثون بها إليه ويكشفون له عن مشاعرهم وعواطفهم .. وأسرار حياتهم .. كما أن له أسلوبا مميزا قادرا على التعبير عن تلك المشاعر والأحاسيس .

نبيل أباظة

طبع بمطابع أخبار اليوم